

**سفر اورنتليم**

**د. شيماء الشريف**

الكتاب: سفرُ أورشليم (رواية)

المؤلف: د. شيماء الشريف

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الطبعة الثانية: القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع: ٢٣٥٥ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي: 1 - 244 - 493 - 977 - 978 I.S.B.N.

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٩٥٥٩ ش طارِق أبو النور. الجامعة الحديثة. المقطم. القاهرة

ت/ فاكس: ٢٧٢٣٨٠٠٤ / (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)

تصميم الغلاف: ياسمين عكاشة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر



# سفر أورتشليم

رواية

د. شيما الشريف

obeyikan.com

## إهداء

إلى والدي الخالي ووالدتي الغالية ...  
الذين ربياني صغيرة  
وسانداني كبيرة  
وشجعاني وافتخرا بي طيلة عمري.  
إلى الرجل الذي غيّر حياتي إلى الأفضل ...  
زوجي الحبيب طارق الشيخ.

obeyikan.com

## شكر واجب

كل الشكر للأصدقاء الأعزاء...

الدكتور عمر فكري

الدكتور أيمن يوسف عز الدين عيسى

وفاتن يوسف عز الدين عيسى

على ما قدموه جميعًا من دعم ومساندة

كانت خير مُعين لي لإنجاز هذا العمل.

مع شكر خاص

لروح الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين عيسى

الذي كان لجواهره الأدبية أعظم الفضل في إلهامي بهذه الرواية.

obeyikan.com

يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَرَاحِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا،  
كَمْ مَرَّةً أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلَادَكَ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةَ فِرَاحَهَا تَحْتَ  
جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا! \* هُوَذَا يَبْنِي لَكُمْ حُرَابًا!

إنجيل متى ( ٢٣ : ٣٧-٣٨ )

إنجيل لوقا ( ١٣ : ٣٤-٣٥ )

obeyikan.com



الخروج

obeyikan.com

أنا أورشليم... أورشاليم... أورسالم... إيلياء... إيليا كايبتولينا...  
بيت هاميقداش... القدس... بيت المقدس... المدينة السماوية...  
الدرب إلى السماء... مدينة الصلاة... بهية المساكن... زهرة المدائن...  
مدينة الزيتون... مدينة الإله الحي...  
مدينة السلام التي لم تعرف أبداً السلام...

تمزقت أوصالي بين المتناحرين... وتشوهت ملاحمي عدة مرات...  
فأضحى التشوه أبرز معالي... حتى إنني لم أعد أعرف من أنا، ولا إلى  
أي من هؤلاء أنتمي... فقررت للمرة الأولى في تاريخي أن أتمرد؛ للمرة  
الأولى سأصنع لي تاريخاً من سلام حقيقي، سأحقق ما فشل في تحقيقه  
البشر، سأمنح جوانبي لأناسٍ جدد، سأمنح شوارعي ومساكني لأهل  
سلام حقيقيين... من اليوم انتهت كل الادعاءات القديمة، وكل الأساطير  
القديمة، وكل الحكايات القديمة... ليُمّت كل سكاني الحاليين، وليُمحي  
ذكر سكاني السابقين، ولتُفتح أبوابي لاستقبال... رجل وامرأة...  
ليبدأ التاريخ...

(١)

قام أقمر بصعوبة شديدة وقد أحسَّ بأن آلة جهنمية قد طحنت عظامه، وأنه لم يعد هناك أي جزءٍ سليمٍ في جسمه بأكمله، وتلفت حوله ببطء وهو لا يزال جالسًا على الأرض؛ ليجد زوجته مستلقية بجواره في حالة سكون كامل، ظن للوهلة الأولى أنها ميتة، ولكن تنفسها المنتظم؛ وإن كان بطيئًا؛ إلا أنه ينم عن ديب الحياة في جسدها، فهزها برفق وهو يتحامل على نفسه قائلاً :

— قمر، يا قمر، استيقظي يا حبيبتى...

ثم التفت مرة أخرى حوله فهاله السكون الرهيب. وفي بطءٍ شديد، أكمل قيامه حتى انتصب واقفًا، وأخذ يتلفت بانتيباه أكثر حوله هذه المرة مغممًا :

— أين أنا؟ ما هذا المكان؟ ما الذي أتى بي إلى هنا؟

وفي ذات اللحظة، بدأت قمر تستعيد وعيها، وتقوم بدورها بالصعوبة نفسها، وعندما انتصبت واقفة بجوار زوجها، التصقت به وهي ترتجف ألمًا ورعبًا وهي تسأله :

— أين نحن يا أقمر؟ ما الذي أتى بنا إلى هذا المكان الموحش؟

— حقيقة لا أعرف، أين كنا قبل أن نأتي إلى هنا؟

- لا أذكر، لا أستطيع تذكر أي شيء سوى أسمينا وكوننا زوجان، لا أتذكر حتى أسماء آبائنا... يا إلهي !
- إلهي... إذن نحن نذكر أيضًا أنه يوجد إله نلجأ إليه !
- نعم يا أقرم، ولكننا بهذا الشكل ضائعون...
- كلا يا قمر، لا يمكن أن يضيع من له إله يحميه، هيا نستكشف سوياً هذا المكان العجيب.

سارا كلاهما وقد التصقا ببعضهما البعض، مدينة موحشة، يلفها السكون التام والهدوء الرهيب، شوارعها ضيقة، بعضٌ منها مبلط، والآخر مسفلت، بما مبانٍ تنتمي حتمًا إلى فئات متعددة، منها ما يعلوه نصف دائرة على شكل هلال لم يعرف أقرم ولا قمر ما دلالته، ومنه ما يعلوه خيطان متقاطعان لم يفهما كذلك ماذا يعني، أما الرمز الأكثر انتشارًا فهو هذا الشيء سداسي الأركان الذي لم يعرفا أيضًا دلالته، واجهتهما أسوار وأبواب...

دخلا ساحة كبيرة تعلوها قبة ذهبية باهرة، وعلى مسافة كبيرة منها قبة فضية أصغر وبينهما وحولهما مبانٍ متعددة الأشكال، لكنهما لم يفهما ما كل هذه المباني والزخارف والأشكال الهندسية الملونة المتداخلة، كانا طوال الوقت يتلفتان بحثًا عنمن يشبههما، عنمن يتحدثان إليه أو يسألانه، لكن لم يجد كل منهما إلا صاحبه في مواجهته.

ومع استمرار سيرهما في المدينة الخالية، بدأ شعورهما بالتعب والجوع والعطش يتضاعف، وبدأ الظلام يحيم عليهما فزادادا معًا شعورًا بالوحشة والرعب والضياع، وبدأ اليأس يجتاحهما ويملاهما، فقرّرًا الاستسلام للنهاية الحتمية.

ارتكنا بجوار حائط قديم ضخم، استنتجنا أنه السور الذي يحيط بالمبنى ذي القبة الذهبية وما حوله، وأسندا رأسيهما عليه، وتبادلنا نظرة أخيرة تزينها ابتسامة صافية، ثم أغلق كل منهما عينيه في سلام.

وفجأة... سمعنا حفيف ثوب، ففتحا أعينهما في سرعة فائقة ليتبيننا عجزًا تبدو عليه إمارات الحكمة والوداعة، لم يبدلا جهدًا لتبين ملامحه بين جنبات الظلام النسبي الآخذ في الازدياد، فقد كان لصيقًا بهما، في مواجهتهما مباشرة، ينتصب واقفا شامخًا... ومشجعًا.

نظرا إليه للوهلة الأولى بدهشة عارمة غير مصدقين، ظنا أنهما يحملان، أو أنهما هلاوس ناتجة عن الجوع والعطش، لكن الرجل كان حقيقة واقعة وأثبت ذلك عمليًا بأن مدّ لهما كلتي يديه ليساعدهما على النهوض، وقد تبينا بنيته القوية أيضًا عندما اعتمد كل منهما على أحد ذراعيه لكي ينهض، ولم تفارق الابتسامة وجهه حتى أصبحا في مواجهته تمامًا...  
بادرهما بالقول بلهجة ودودة وحاسمة :

— مرحبا بكما، آسف لتأخري، كان لابد أن أكون في استقبالكما عند المدخل، ولكنني كنت أتلقى أوامر تفصيلية بشأنكم من أورشليم...

لم تكن الدهشة قد بارحت أقمر وقمر، ولكنها تعاضمت وتفاقت بعد  
سماع كلماته، فهتفا في صوت واحد :

- أوامر بشأننا من أور... من؟

- أورشليم، المدينة التي استقبلتكم، وهي الآن تحوطكمما وتحميكمما  
داخل أبوابها، وسوف تساعدكم في كل حياتكمما القادمة.

فنظر كل منهما للآخر، وبادره أقمرؤ :

- لا نفهم شيئاً، من أور... ش.. م هذه؟ وكيف تتحدث معك مدينة؟  
ومن أنت أصلاً؟ وماذا تعرفان عن حياتنا القادمة؟ وماذا....

أوقفه العجوز بإشارة من يده وهو لا يزال يحتفظ بابتسامته :

- لا تتعجل يا أقمر، ستعرف كل شيء في حينه، والآن تعالا معي  
لأرشدكم إلى داركمما، وجيرانكمما.

- جيراننا؟ هل هناك غيرنا هنا؟

- نعم.. هلما معي.

سارا وراءه وكأفهما في حالة بين النوم واليقظة، ونسيا مؤقتاً التعب  
والجوع والعطش بعد أن أصبح فضولهما عارماً وجامحاً وطاغياً، واشتعل  
أتون رغبتهما في المعرفة فوق أية رغبة أخرى.

سارا مسافة ليست بالقصيرة ولا بالطويلة خلف العجوز، وحوالا  
جاهدين متابعة خطاه النشيطة السريعة، حتى توقفا أمام باب برونزي

كبير تملأه الزخارف النباتية البديعة، ففتحه العجوز ببساطة بعد أن دفعه بكل ذراعه، فانفتح الباب على ساحة ذات أرض رخامية بيضاء تتوسطها فسقية صغيرة أنيقة وتعلوها فتحة تُرى منها السماء التي اكتست الآن بلون الغروب، ويحيط بهذه الساحة ممرٌ دائريٌّ تطل عليه أبواب لا يقل عددها عن عشرة، وتبدو النظافة والأناقة على المكان كله.. ولج العجوز إلى الحجرة الأولى ليتبين الزوجان أنها حجرة استقبال فسيحة وبديعة تملأها المقاعد الوثيرة والمريحة، فدعاهما للجلوس وجلس بينهما، ثم صفق بقوة فظهر صف من الخدم يحمل أواني بها ما لذ وطاب من الطعام والشراب، وبعد أن وُضع الطعام أمامهم، اختفى الخدم جميعاً دفعة واحدة وسط ذهول أقمر وقمر، بينما دعاهما العجوز إلى الطعام وهو لا يزال يتسم في هدوء.

أكل أقمر وقمر حتى شبعاً، وشربا حتى ارتويا، ولكن نهما المعرفي ورغبتهما الفضولية في فهم كل هذه الألغاز التي تدور حولهما كان طاغياً وهائلاً، فما لبثا أن فرغا من طعامهما، حتى التفتا إلى العجوز يطرانهن بالأسئلة والاستفسارات، ومع تأكيد المستمر أنهما سوف يعرفان كل شيء في حينه، ازداد سخطهما واضطرت نيران فضولهما، حتى اصطحبهما العجوز خارج حجرة الاستقبال وتجول بهما في أنحاء البيت حجرة تلو الأخرى، فتبينتا عدة حجرات للنوم وحجرتين إضافيتين للاستقبال بخلاف الأولى التي تناولا طعامهما فيها، وتبينتا أيضاً

حمامًا ومطبخًا، وفي نهاية الممر الدائري أدخلهما العجوز حجرة خالية إلا

من بعض المقاعد تتوسطهم مائدة، ثم أوضح لهما :

– هذه هي الحجرة الأخيرة في ترتيب حجرات داركما، لكنها يجب أن

تكون الحجرة الأولى في اهتمامكما، إذ يجب أن تجتمعا هنا مرة واحدة

في نهاية كل يوم لتقدما فروض الشكر والولاء لمدينتكم أورشليم.

فتمعن أقمر في الحجرة البسيطة، ثم تتم قائلًا :

– أهذه حجرة صلاة؟

فالتفت العجوز مندهشًا وقد اختفت ابتسامته وحل محلها استغراب

شديد :

– من أين عرفت هذه الكلمة؟

فوجئ أقمر برد فعل العجوز الذي كان هادئًا ومبتسمًا حتى هذه

اللحظة، فردّ وهو محتفظ بهدوئه؛ وإن لم تفارقه الدهشة :

– لا أعرف، وجدت نفسي أقولها.

– غريبة، وماذا تعرف أيضًا يا أقمر؟

– أعرف أنه يوجد إله.

فتعاطمت دهشة العجوز، وسأله بلهجة لم تخلو من صرامة :

– وهذا أيضًا وجدت نفسك تقوله؟

– نعم، إنني أقوله وأشعر بوجوده أيضًا.

- أطلق العجزو ضحكة عصبية، ثم أردف قائلاً :
- لقد كانت أورشليم دوماً على حق، البشر هم البشر. اسمع يا أقمر، حتى تدوم إقامتك وسعادتك في حمى أورشليم، يجب أن تنتظر دوماً ما سوف تعلمك إياه، احذر يا صديقي، ففي العَجَلَة الندامة.
- ولكن لا أحد علمني، لقد أحسستُ أن هناك إلهاً خلقتني لأنني ما خلقت نفسي، وأعرف أنني يجب أن أحادث خالقي عن طريق صلاة... صدقني هذا كل ما أعرف، إنني حتى لا أعرف شيئاً عن أصلي ولا من أين جئت ولا السبب الذي جاء بي إلى هنا، وأتمنى أن يساعدني أحد لكي أعرف قبل أن أُجنّ.
- قلتُ لك ستعرف كل شيء في وقته يا أقمر، وعموماً هذه هي أول الدروس، نعم، هناك إلهٌ واحدٌ خلقنا جميعاً، ويجب أن نتواصل معه في كل لحظة بروحنا وأفعالنا، وأن نكرس له وحده وقتاً من كل يوم من أيام حياتنا في تسييح باسمه وشكر لنعمته نسميه صلاة، ولكن هذا لا علاقة له بقَسَم الشكر والولاء والطاعة الذي ستقوم به يومياً مع زوجتك لأورشليم في هذه الحجرة.
- فحدثت قمر للمرة الأولى :
- ولكنني لازلت لا أفهم أيها العجزو... بالمناسبة هل لك اسم يمكن أن نناديك به؟

فأجابها العجوز وعلى شفثيه ابتسامه خبيثة :

- اسمي... لقد أذنتُ لي أورشليم أن أقول لكما في أول لقاء ما قلته فقط، وسوف أخبركما كل يوم بكل ما يجب أن تعرفاه.

بادره أقرم :

- وماذا عن جيراننا الذين ذكرتهم؟ أين هم؟

- سيأتون حالاً لتحتيتكما، وإذا احتجتما أية مساعدة من الخدم فما عليكم إلا أن يصفق أحدكما أو كلاكما بيديه لاستحضارهم... إلى اللقاء.

واختفى دفعة واحدة أمام عيون أقرم وقمر الذاهلة.

اتجه أقرم وقمر إلى حجرة الاستقبال التي كانا يتناولان فيها الطعام، وجلسا ورأس كل منهما تغلي بالأسئلة، حتى زفرت قمر في ضيق قائلة:

- إنني لا أرتاح لهذا العجوز يا أقرم، ربما يضللنا أو يخذعنا.

- لم يبدُ منه أي شر حتى الآن يا قمر، بل على العكس، يكفي أنه ساعدنا وأوجد لنا المأوى والطعام.

- ولكنه مبهم ومحير، ما موضوع أور... ش.. ليم هذا؟ إنني حتى لازلت أجد صعوبة في نطق هذا الاسم.

- لا بد أن نعود على نطقه يا قمر، وأن نقدم لها الشكر والولاء يومياً كما نصحننا العجوز، لا تنسي أنه لا اختيار لدينا، ونحن لا نعرف مدينة أخرى نلتجئ إليها.

- أنا واثقة من أنه توجد مدينة أخرى.
- لا تكوني جاحدة وناكرة للجميل يا قمر، اشكري الله على نعمه و...  
فقاطعته قمر متسائلة :
- الله !! ماذا يعني هذا؟
- فأبدى أقمر اندهاشاً أيضاً، وردَّ قائلاً :
- لا أعرف.. وجدت نفسي أنطق هذا الاسم يا قمر.
- هل هو الإله الواحد الذي ذكرته أيضاً دون أن تتعلمه؟
- إنه هو بالتأكيد.
- إذن هيا نصلي له لكي يساعدنا ويريح بالنا.
- ولكن يا قمر، لقد رأيت موقف العجوز من الإله والصلاة، دعينا  
نؤجلها للغد بعد أن نعرف أكثر، واليوم نكتفي بالشكر والولاء  
لأور... شليم، لعل المدينة تتوسط لنا عنده.
- بل سنصلي فوراً يا أقمر، لا أحد يستطيع أن يمنعنا عن خالقنا، ولا  
معنى أن يتوسط بيننا وبينه أحد.
- فقال لها أقمر بعد تردد :
- ولكننا لا نعرف كيف نصلي؟
- أغمض عينيك واخلو بنفسك مع إلهك وحادثه من قلبك... تكن  
صلاة.

• • •

- ولكن يا سيدتي، هذه بداية خطيرة، قد يؤدي ذلك بهما إلى....
- إنهما لا يعرفان شيئاً بعد، ولن يكون هناك سبيل إلا إلى المعرفة التي سأمنحها لهما.
- ولكنهما بالفعل قد عرفا ما لم نقله لهما، وقد يعرفان أكثر.
- كلا... لن يعرفا إلا ما أريد لهما أن يعرفاه...

• • •

- غلب النعاس أقمر وقمر في حجرة الاستقبال، واستيقظا على صوت العجوز الذي أخذ يوقظهما برقة وابتسامة مشرقة تغطي وجهه، فاستيقظ أقمر أولاً، وبادره بقوله :
- صباح الخير أيها العجوز... ألن تجربنا باسمك حتى نناديك به.
  - سلسبيل... أذنت لي أورشليم أن أخبركما باسمي.
- سمعتة قمر التي استيقظت لتوها قاتلة :
- عمت صباحاً يا سلسبيل، لدينا الكثير من الأسئلة.
  - الإفطار أولاً يا قمر.
- ثم صفق بكفيه، فظهر الخدم من جديد، وحملوا لهما ما لذ وطاب من طعام الإفطار، فأكلا بشهية لا مثيل لها، وبعد أن انتهيا من طعامهما والتفتا إلى سلسبيل لإمطاره بالأسئلة، توقفوا وهما يسمعان من يقول :

– مرحى مرحى، أخيراً سنتعرف على جيراننا.

فالتفت أقمر وقمر بجدة نحو مصدر الصوت، فوقعت عيناهما على مخلوقين جميلين يشبهاهما في تكوينهما الجسدي، فيما عدا فرق واحد : كان لكل منهما جناحان. نظر قمر وأقمر إلى المخلوقين بدهشة شديدة، فبادرهما المخلوق الذي يبدو أنه الذكر :

– اسمي نور، وهذه زوجتي نوران، نحن جيرانكما، لقد أتينا بالأمس لتحييتكما لكنكما كنتما تغطان في نوم عميق، فانسحبنا وقلنا الصباح رباح.

فازدرد أقمر ريقه محاولاً استيعاب الأمر، وفتح فمه ليتحدث فلم يجد ما يقوله، فآثر الصمت، لكن قمر لم تملك فضولها، فبادرتما قاتلة :

– ما هذه الأجنحة التي تزين ظهريكما؟ ألستما بشراً مثلنا؟

نظر نور بارتباك وحيرة إلى سلسبيل، فأسرع هذا الأخير بالرد قائلاً :

– ألن تدعوا ضيفيكما للجلوس؟

نظرت قمر إلى سلسبيل شزراً، ثم أعادت سؤالها بإصرار، فأجابتها نوران بابتسامة مرتبكة :

– هكذا خلقنا الله.

فنطق أقمر أخيراً وكأنه وجد ضالته :

– من أين أنتما؟

فعاد نور ينظر بارتباك إلى سلسبيل الذي كان في هذه اللحظة يتمعن في

وجه أقمر، فلم يجد نور بُدًا من الإجابة، فأجاب :

– نحن مثلكما، لا نعرف من نحن ولا من أين جئنا...

وبعد لحظة من التردد أردف :

– بدلاً من الأسئلة عن ماضي نجهله، أليس من الأفضل بناء حاضر

ومستقبل نحبه ونسعد به؟

فتساءلت قمر :

– وأور... شليم؟

فردَّ نور بسرعة وثقة :

– هي مدينتنا الحامية، وحصننا العزيز، وهي التي يجب أن نقدم لها قَسَمَ

الشكر والولاء يومياً.

فسألته قمر وهي تنظر إلى سلسبيل بحبث :

– قبل الصلاة أم بعدها؟

نظر كل من نور ونوران إلى صاحبه، ثم هتفت نوران :

– الص... لاة؟ ما معنى هذا؟

فتعجب أقمر وتساءل :

– كيف تعرفان الله ولا تعرفان الصلاة؟

فقطع سلسبيل الحديث بحدة وضيق قائلاً :

– أنت عجول للغاية يا أقمر، وهذا أمر بدأ يضايقني حقًا، صدقني  
ستؤذي نفسك بهذه الطريقة.

فنظرت إليه قمر باستهانة وسألته :

– أهذا تهديد؟

فاستعاد سلسيل هدوءه الجليدي دفعة واحدة، ورسم ابتسامة مرغمة  
على وجهه قال من خلالها :

– كلا بالطبع، لا تهديد ونحن في حى اورشليم، لكنني أدعوكما إلى  
التريث والصبر، أعدكما باسم اورشليم أن أعلمكم جميعًا كل شيء.

فنظرت إليه قمر بتحدٍ، ثم همست :

– سوف نرى أيها العجوز اللئيم.

ولم يسمعها سوى أقمر... ونوران.

( ٢ )

جلس قمر وأقمر ونور ونوران متجاورين أمام سلسبيل في حجرة الاستقبال الموجودة في بيت قمر وأقمر، وجلس سلسبيل في مواجهتهما وبادرهما قائلاً :

– سنبدأ اليوم يا أصدقائي الدرس الأول... وأهم ما في هذا الدرس هو أننا سنصنع من قلب أورشليم ماضٍ وحاضرًا ومستقبلاً، نحن الماضي ونحن الحاضر ونحن المستقبل، وهذا معناه أن نبدأ معاً بداية جديدة ونظيفة ومشرفة، بلا ذكريات... ولا أسئلة. يجب أن تنحصر كل الأسئلة في اللحظة الآتية وحول اللحظة الآتية وما بينهما وما بعدهما، أما ما قبلهما فلا يهمننا.

نظرت قمر إلى أقمر بغيظ، ثم انبرت قائلة :

– هل تتوقع أن نستمر في الاستماع إليك بعد ما قلت؟

نظر إليها سلسبيل بهدوئه المستفز، وأردف مبتسماً :

– أستطيع أن أتبين من لهجتك أنك غاضبة، فماذا يغضبك يا قمر؟

– يغضبني أنك تستخف بعقولنا.

– لماذا تقولين ذلك؟

- كيف تريد تعليمنا دون ماضٍ؟ هل هذا معقول؟ كيف أتعلم أي شيء وأنا حتى لا أعرف من أنا؟ وكيف أتعلم أي شيء قادم عن نفسي ورفاقي ونحن لا نعرف شيئاً عن ماضينا... إن هذا.....

- كفى يا قمر.

قالها سلسبيل بصرامة هائلة ولهجة شديدة الحدة ألجمت قمر تماماً، ثم أردف قائلاً :

- ستعرفين ما هو في مصلحتكم معرفته، ستعرفون فقط ما سيجعلكم تعيشون في سلام معاً، وأي خرق ولو بسيط لهذه القاعدة سوف يعرضكم لغضب أورشليم، وأنا أحذرك من غضبها، أحذركم جميعاً... هذا كلام أقوله للمرة الأخيرة، ولن أكرره لأنه لن يكون هناك داعٍ لتكراره بعد أن يكون غضب المدينة قد حلَّ عليكم جميعاً.

ساد صمت تام بعد كلمات سلسبيل النارية، وضغطت قمر على أسنانها حتى سُمع صوت احتكاكها وكأن بفكيها قبيلة على وشك الانفجار، وضغطت أقمر على يدها في محاولة صامتة لتهدئتها، واستأنف سلسبيل هدوءه كعادته، واستمر في حديثه كأن شيئاً لم يحدث :

- إن هدفنا الأول في هذه المدينة هو أن نعيش بسلام معاً، وهذا السلام له شروط صارمة لا بد أن نتبعها حتى نحافظ على السلام حياً يانعاً لا تشوبه أية شائبة، وأول هذه الشروط أن نعرف جميعاً ونتأكد ونكون على يقين تام من أننا جميعاً مخلوقات لإله واحد خلقنا جميعاً من تراب،

وإليه نعود، ولا بد أن نراقب دومًا أفعالنا وتصرفاتنا وأن يكون هدفنا دائمًا هو الخير لأنفسنا وللآخرين حتى نحظى برضاه، وهذا الإله الواحد هو الله الذي لا إله إلا هو، والذي يجب أن نشكره دومًا على نعمه التي لا نستطيع حصرها بالكلمات، ونقدم هذا الشكر في صورة ما يُسمى بصلوات يومية، ويجب ألا يجعلكم أي شيء تشغلون عن أداء صلوات العبادة والشكر لله. وثاني هذه الشروط أن تقدموا دومًا فروض الولاء والطاعة والشكر لمدينتنا الخالدة أورشليم على حمايتها لنا واحتوائها لحيواتنا بين جدرانها العامرة، وفضلها وخيرها الذي أسبغته وتسبغه دومًا علينا لننعم بالعيش الرغيد في كنفها وحماها، وهي لا تطلب الكثير في مقابل كل هذه النعم، ولكن بضع همسات من الشكر نهمس بها في الحجرة المخصصة لذلك في بيت كل منكم، ومحظور على كل منكم نسيان ذلك الشكر اليومي. وثالث هذه الشروط هو أن تتحابوا، وتعيشوا معًا دون أن يكون بينكم إلا كل ما يحنكم جميعًا على الحب والتعاون، ولكي يدوم استقراركم يجب أن تنجبوا أطفالًا لينعموا في كنف مدينتنا العامرة بحياة جديدة ملؤها الأمل والسلام.

توقف سلسيل عن الكلام ليزدرد ريقه، وليراقب بعينيه العميقتين أثر كلماته على وجوه الحاضرين، وقد اجتمعوا جميعًا في نظرة ملؤها الدهشة، حتى قمر التي يبدو أنها نسيت غضبها أو تناسته وأخذت تفكر

بسرعة البرق في محاولة لاستيعاب ما قاله سلسيل، وكانت هي بالفعل  
أول من بادرتَه قاتلة :

- ننجب أطفالاً؟! إن هذا الأمر لم يرد في أذهاننا قط.
- لأنكم شغلتم أنفسكم بالماضي أكثر من انشغالكم بالمستقبل.
- ولكننا لا نشعر بالأمان لأنفسنا، فكيف سمنحه... لآخرين؟
- وما الذي يمنعك من الشعور بالأمان يا قمر؟
- فترددت قمر، فأجاب أقرم وكأنه قرأ أفكارها :
- الرغبة في المزيد من المعرفة يا سلسيل.
- فابتسم سلسيل ابتسامة ذات معنى، وقال :
- سوف تتعلمون مع أطفالكم وليس قبلهم يا أقرم.
- معذرة... لا أفهم...
- ارتأت أورشليم بأن ما ستتعلمونه من أطفالكم وهم في طور نموهم  
الفطري سيكون سبيلكم أنتم أيضًا إلى المعرفة الحقة، المعرفة الفطرية  
البعيدة عن التعقيدات، المعرفة القائمة على أن الحاجة أم الاختراع،  
وعلى أن الرغبة في البقاء تدفع إلى المعرفة النافعة.
- فحدثت نوران للمرة الأولى، وقد ارتعش جناحيها من فرط الانفعال :
- ولكننا لا يمكن أن نعطي ما لا نملك يا سلسيل.
- بل تملكون الكثير يا نوران، فقط اجثوا داخل نفوسكم.

ثم أردف في ابتسامه خبيثة :

– لماذا تريدون كل شيء جاهز يا نوران؟ اتعبوا قليلاً في البحث داخل أرواحكم، وسوف تجدون ضالتكم.

• • •

– نعم، اجثوا يا أبنائي داخل أرواحكم النقية كما خلقها الله، فسوف تجدون ما لم يجده أجدادكم، فاقبتلوا وأفنوا بعضهم البعض، تحت رايات طاهرة وكلمات مقدسة.

• • •

ذرع أقمر حجرة الاستقبال ذهاباً وإياباً وظهرت عليه علامات التفكير العميق، وكانت قمر تتابعه ببصرها وقد أسندت ظهرها إلى المقعد المواجه له، كانت رأسها تغلي مثل المرجل وكانت تشعر بأنها تكاد تموت غيظاً، ولما استبد بها غيظها قررت إشراك أقمر، فبادرته قائلة :

– أقمر، أكاد أجن.

– هه... آه... نعم...

- ماذا دهاك يا أقمر؟ هل تسمعي؟ أم أن عقلك ذهب من حديث هذا العجوز الكريه؟
- لا تسبيه في غيابه يا قمر، ولماذا تسبيه أصلاً؟ إن الرجل لم يتعرض لنا بأذى.
- كل ذلك ولم يتعرض لنا بأذى؟ يمحونا ويعيد تشكيلنا على مزاجه وتقول إنه لم يتعرض لنا بأذى؟
- ومن قال إنه سيسكلنا على مزاجه؟ لقد طلب منا أن نبحت داخل أرواحنا، فابحني يا قمر داخل نفسك.
- أنا لا أعرف نفسي حتى أبحث بداخلها.
- لا بد أن نعرف يا قمر، لا بد أن نعرف، ولن نعرف أي شيء إلا إذا بدأنا بأنفسنا، لن نعرف أي شيء بدون هذا المجهود الذاتي الذي لا مناص منه.

سكتت قمر يائسة من استئناف الحديث مع أقمر الذي يبدو مأخوذاً تماماً من كلام سلسبيل، فقامت وغادرت غرفة الاستقبال، ثم غادرت البيت كله، وفكرت لوهلة أن تدلف إلى البيت المجاور حيث نور ونوران ولكنها عدلت عن هذه الفكرة لأنها فكرت أنهما سيكونان غالباً على نفس الدرجة من الهديان؛ إن لم يكن أشد؛ وخرجت وحدها في شوارع المدينة، كان الجو صحواً والسماء صافية تتوسطها شمس ذهبية معتدلة الحرارة، داعبت نسمة رقيقة شعر قمر، فتشجعت وتابعت السير.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تخرج فيها قمر وحدها للسير بين أرجاء المدينة، ولكن الفضول الذي كان يأكلها جعلها تود إفراغ هذه الطاقة في الحركة ومحاولة استكشاف أي شيء قد يجيب على عشرات الأسئلة التي تجتاحها بلا إجابة، أخذت تسير وتسير وتسير، وتتأمل بعيون مختلفة الأبنية والطرق، وهي تعجز تمامًا عن فهم الفرق بين كل هذه الرموز واللغات ودلالاتها، ولكن الشيء المؤكد عندها هو أنه كان هناك في هذه المدينة ماضي معقد التفاصيل كما يبدو من آثاره، وأن هذا الماضي محرّم عليهم الآن معرفته، بل مجرد ذكره.

ومن كثرة المشاهدات أحسّت قمر بالدوار، وتضاعفت الأسئلة في رأسها مما جعلها تشعر بسخونة وغليان، فتوقفت ورفعت رأسها إلى السماء وهمست في تصميم وإصرار :

- كلاً... سأعرف !

• • •

- هل نتخلص منها يا سيدتي؟
- هل جننت؟ ومن سينجب أقمري؟
- ولكنها بهذه الطريقة لن تستجيب يا سيدتي.
- إنما لن تعرف أي شيء مهما حاولت... أوكد لك.

• • •

لم تعد قمر حتى انتصف الليل، وكان أقمر قد انتبه إلى عدم وجودها بعد حوالي ساعتين من مغادرتها، وظنها في بداية الأمر عند نور ونوران، ولما سأهما عنها ووجد أنهما لم يقابلاها، التاع قلبه وخشي أن يكون قد أصابها مكروه، خاصة وهما لم يألوا بعد طرقات المدينة.

بحث عنها أقمر حول دارهما، ولما لم يجدها استنجد بنور ونوران ومجثوا معًا عنها في الشوارع الخيطة، وعندما بدأ الظلام يحل التهم الرعب قلب أقمر وبدأ يصرخ منادياً عليها في ظلام دامس لا يبده إلا الضوء الخافت لملايين النجوم، نادى عليها بكل جوارحه حتى بُح صوته وأنمكت قواه فعاد إلى داره متلمسًا طريقه بصعوبة وسط الظلام، عاد وقد كست وجهه دموع مُرّة على فقدان زوجته ورفيقته الوحيدة. ومجرد أن دلف إلى البيت حتى وجدها في استقباله وقد اكتسى وجهها هي الأخرى بدموعها خوفًا عليه، لقد عادت بمجرد مغادرته ولكن من الطريق المعاكس، فما كان منه إلا أن احتواها بذراعيه وبكامل جسده وكأنه يخفيها عن العالم بأسره، واتجها إلى غرفتهما حتى أنهما لم يشعرا بابتهاج نور ونوران ولم يريا دموع فرحتهما...

وفي هذه الليلة حملت قمر بتوأميةا : نجم وشمس.

( ٣ )

عندما بدأت أعراض الحمل تظهر على قمر بعد قرابة شهرين من هذه الليلة، ابتهجت وخافت، فقد كانت تأمل أن تعرف كل شيء قبل أن يأتي طفلها إلى الوجود ليبدأ يامطارها بأسئلة لن تعرف الرد عليها، وكانت قد أسرت في ليالٍ متتابة لأقمر بمشاهداتها يوم أن تجولت بالمدينة، وأكدت له أن ما رآته يبرهن على تعقيد شديد عصي على الحل، ومن بين همساتها كانت هذه الكلمات :

– هل تذكر ذلك الشيء السداسي الشكل الذي رأيناه معاً في يومنا الأول في هذه المدينة يا أقمر؟ لقد رأيت منه أعداداً لا حصر لها، ومنه ما تحيط به لغة غريبة لم أستطع فهمها، ومنه ما يحوطه خيطان أزرقان واحد أعلاه والثاني أسفله، ولكن ربما يدل انتشار هذا الشكل وتكراره على كونه أصل هذه المدينة.

فأجابها أقمر وهو يهمس هو الآخر :

– وربما يدل على أمر آخر معاكس يا قمر، ربما يدل مثلاً على أن أصحاب هذا الشكل كانوا الأقوى أو الأكثر غلبة، أو ربما كانوا أصحاب قوة غاشمة ظالمة فرضوا سيطرتهم على أنحاء المدينة رغماً عن الجميع.

- فحككت قمر جبهتها مفكّرة، واستمرت هامسة :
- ولكن يا أقمر، يوجد الرمزان الآخران اللذان رأيناها معًا أيضًا،  
نصف الدائرة على شكل الهلال والخطان المتقاطعان، هل تعتقد أن  
كل هذه الأشكال ترمز إلى جماعة واحدة؟
- لا، أعتقد أنهم ثلاث مجموعات، وربما ثلاث....
- ثلاث ماذا؟
- ثلاث... صور للعبادة؟
- كيف هذا؟ ما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟
- إن أغلب الأماكن التي تعلوها هذه الأشكال تبدو وقورة وبهية،  
وكأنها عروس تتزين لحبيبتها، أعني أن تكون هذه... أماكن... صلاة.
- ولكن يا أقمر... هذا يفتح الباب لعشرات الأسئلة، فلماذا تكون  
هناك عدة صور للعبادة مادام الإله واحد؟ وماذا تعني هذه الأشكال  
في هذه الحالة؟
- فرفع أقمر حاجبيه في حيرة، ولم يدرِ بماذا يجيب، ولكن قمر التي لا  
يتوقف عقلها أبدًا عن العمل بادرته مفسرة :
- ربما يكون الله نفسه هو من أراد ذلك حتى يعبده البشر بطرق مختلفة؟
- إن هذا تفسير يعقد المسألة يا قمر، ولماذا يفعل ذلك؟ ألن يكون ذلك  
مدعاة لأن...

– لأن ماذا يا أقمر؟

– لا شيء يا قمر... أعني... لا أعرف.

– ولكنني أريد أن أعرف !

...

– اهتمي بمستقبل ثمرة بطنك يا قمر، واتركي الراقدين في رقادهم !

...

بدأت همسات قمر لزوجها تفل حتى خفتت تمامًا مع تقدمها في الحمل بكل متاعبه، ومع اقتراب موعد ولادتها نسيت كل شيء فيما عدا رغبتها في الخلاص من هذا الثقل الهائل الجاثم على أنفاسها، ورغم حملها، فإنها لم تنسَ أن تصلي يوميًا إلى الله مع أقمر داعية إياه أن يقصر أيام تعبها ويعجل بولادتها، كما لم ينسَ أحدهما تقديم الشكر والولاء اليومي إلى أورشليم التي احتوتها برعايتها وعنايتها، وكانت المدينة على يقين من أن مسؤوليات قمر الجديدة كأم سوف تلهيها عن كل الأسئلة التي لا تتوقف عن التدفق في رأسها. كما اختفى سلسيل تمامًا بناءً على أوامر أورشليم، إمعانًا في إلقاء قمر في حملها وعدم فتح أبواب جديدة

للمناقشة. وقد ساعدت نور ومعها خادمتان قمر على الولادة، لم تكن قمر تعرف أنها تحمل توأمًا: ولدًا وبنثًا، وعندما تتابع نزولهما من رحمها بعد مخاض عنيف ومؤلم، وجد أقمر أمام عينيه طفلين رائعين من صلبه، فأطلق على الولد "نجمًا" وعلى البنت "شمسًا"، وقَبَّل جبين زوجته وحببته وهو يهمس لها :

– والآن أرجو أن تكفي عن كل خزعبلاتك، وتهتمي بتنشئة ابنينا.

فأجابته بأنفاس واهنة تفوح منها رائحة التصميم :

– بل إنني أكثر إصرارًا من ذي قبل على المعرفة... لأجلهما.

دبَّت الحياة في منزل قمر وأقمر، ولم يعد هناك بحاجة إلى التصفيق لاستحضار الخدم، فقد كانوا حاضرين كاملي العدد ليلاً ونهارًا تلبية لاحتياجات سيدة البيت وطفليها التي لا تنتهي، أضحت الدار كخلية نحل، لا تعرف الهدوء ولا حتى في قلب الليل، فقد كان بكاء الطفلين معًا؛ قادرًا على أن يوقظ مدينة بأكملها.

وانشغل أقمر بدوره بولديه اللذان كانا يكبران أمام عينيه يومًا بعد يوم، مما وُلِد في قلبه تجاههما فخرًا فياضًا من الحب جعله يولييهما رعاية خاصة لا تعرف الكلل ولا الملل، فقد ارتأى أنه مسئول أيضًا مثل قمر تمامًا في تنشئتهما.

وكان كل من نور ونوران يشاركان الوالدين فرحتهما، ويتمنيان أن يحظيا بمثلها، حتى بدأت بشائر الحمل تظهر على نوران بعد حوالي ثلاثة أشهر من مولد نجم وشمس، وفرح الجميع وانتظروا اكتمال الحادث السعيد.

وضعت نوران توأماً هي الأخرى، ذكران جميلان لكل منهما جناحان كجناحي والديهما، أطلق عليهما نور: "ضياء" و"هلال"، وانشغلت نوران بدورها تماماً بطفليها مع طابور من الخدم، ولم تكن تشعر إلا بكل سعادة دون أن تفكر في أي شيء، حتى أنها نسيت ما شغلها ليالٍ طويلة يوم أن سمعت همس قمر وهي تنعت سلسبيل بالعجوز اللئيم، وكانت قد حاولت أن تستفسر منها ذات يوم عن سر نفورها من الرجل، فأجابتها قمر بمنتهى الوضوح:

- لأنه غير واضح معنا يا نوران، إنه كاذب.
- لا يصح أن تسببه في غيابه يا قمر، إن الرجل لم يضرك بأي شيء.
- بدأت تتحدثين مثل أقمر.
- إن أقمر عاقل ومسلم، ويجب أن نحب كلنا السلام يا قمر، فلا تفتعلي غضباً دونما سبب.
- بل إن هناك بدلاً من السبب أسباباً.
- قمر... فكري في سعادتنا وحياتنا معاً، إننا نعم برحاء وهناء، فلا تعكري صفو حياتك بأن تتعلقي بجبال من الأوهام.

أرادت قمر إنهاء مناقشة رأها غير مجدية، فقالت بعد أن زفرت بعمق :  
- نوران، إن الآثار الباقية في هذه المدينة ليست أوهامًا، ولكنها تثبت  
أن من كانوا فيها قبلنا كانوا على درجة شديدة من التنوع  
والاختلاف، وهذا معناه أنهم لم يكونوا متشابهين، وهذا أيضًا معناه أن  
الطبيعي هو أن نكون مختلفين وليس أن نكون متفقين ولا متشابهين...  
سأغادرك الآن، فقد تأخرت على أقمر.

وغادرت قمر منذ ذلك اليوم، وتجنبت الخوض معها بعد ذلك في أية  
أحاديث من هذا النوع، وانشغلت بعدها في الحمل والولادة، وانشغلت  
بعدها نوران نفسها أيضًا بالحمل والولادة، فنسيت هذا الكلام تمامًا.  
أما قمر، فلم يكن مخلوق يستطيع أن ينسيها أي شيء، لقد احتفظت  
بكل ما تريد في ذاكرة خلفية مؤجلة حين إحداث توازن لحياهما  
واطمنأها على طفليها... لكنها أبدًا لم تنس.

مرَّ عامان بعد ولادة ضياء وهلال، ابني نور ونوران، وبلغ نجم وشمس، ابني أقمر وقمر، ثلاثة أعوام من العمر، التحمت الأسترتان بشدة واندمج الأطفال مع بعضهم البعض تمامًا، خاصة الصبية، فكانت الفتاة "شمس" تلبث في حضن أمها قمر أو الجارة نوران التي بدأت تتعود بتسميتها الخالة نوران، أما نجم وضياء وهلال فكانوا لا يشعرون بنبض الحياة إلا حال وجودهم معًا، وقد تعلموا جميعًا المشي، كما بدأ نجم وشمس يتحدثان بوضوح أكبر من ضياء وهلال، كما بدا أيضًا أن نجمًا هو أذكى الجميع والأقدر على القيادة.

وكان الجميع قد ألفوا المدينة الموحشة وطرقاتها وشوارعها، واطمأنوا تمامًا على أنفسهم بين أرجائها، فكانوا يتركون أطفالهم يتجولون بحرية تامة بين البيتين وفي الشوارع المحيطة، وعلى الرغم من حياة الهدوء والدعة والسلام هذه، إلا أن قمرًا - التي لم يتوقف عقلها الباطن والظاهر لحظة عن التفكير - عادت لتهمس في أذن زوجها بمشاهداتها المختلفة وانطباعاتها عنها؛ خاصة وقد واتتها الشجاعة للتجوال بحرية أكبر في أرجاء المدينة الشاسعة، كانت قد توصلت بعقلها وحده إلى أن الاختلاف هو أساس الحياة وليس الاتفاق أو التشابه، وقد أدى بها ذلك

إلى التفكير في حكمة أن يعبد الناس إلهًا واحدًا بأشكال مختلفة، وقد أرقها هذا الموضوع كثيرًا جدًّا، فما دام الإله واحدًا فيجب أن تكون العبادة واحدة، هذا ما ظننته وتأكدت من خطئه؛ أو على الأقل لم يكن هذا هو حال هذه المدينة في ماضيها الذي يجهلون؛ وبينما يشغلها هذا الموضوع حتى وهي ترضع توأمها وتحممها وتقوم على رعايتهما، إذا بأقمر يدخل عليها ذات يوم بعد أن أنامت طفلها وكانا يبلمان في هذا الوقت عامًّا واحدًا، بادرها أقمر قائلاً :

– لقد رأيت سلسيل اليوم يا قمر !

فانتبهت حواس قمر دفعة واحدة، وبدأت عليها الدهشة الشديدة، فصاحت دون الانتباه إلى إمكانية أن توقظ طفلها :

– سلسيل؟! وأين كان مختفيًا طوال الفترة الفائتة؟

فأجابها أقمر وقد بدا عليه الشرود التام :

– لا أعرف... أنا لم أتحدث معه... لقد رأيته في غفلة منه...

– ولماذا لم تسأله عن سرِّ غيبته؟

– كان منشغلًا..

– بماذا؟ هل هناك غيرنا في هذه المدينة لينشغل به؟

– لم يكن منشغلًا بأشخاص... كان منشغلًا بـ... لا أدري.

– أقمر، سأنفجر غيظًا إن لم تتحدث مباشرة وبوضوح.

– صدقيني يا قمر، أنا لا أفهم ما رأيت، اسمعي، سأصف لك حتى تساعديني على الفهم، لقد رأيتُه واقفاً في ساحة هذا المبنى المهيب ذي القبة الذهبية الذي رأيناه سوياً أكثر من مرة، هل تذكرينه؟ رأيتُه هناك واقفاً في صمت تام، كدت أقرب منه، ففوجئت به ينثني مستنداً على ركبتيه ثم عاد واقفاً مرة أخرى ثم خرَّ على الأرض ملصقاً جبينه بها، وكُرِّر هذا الفعل كاملاً عدة مرات لم أنتبه لعددتها، ثم جلس على ركبتيه فترة طويلة، ثم أدار رأسه يميناً ويساراً، ثم قام و... اختفى.

حكى قمر جبينها كعادتها عندما تفكر بعمق، ثم قالت بحيرة :

– وقوف وانثناء وانحناء والتصاق بالأرض، ماذا يعني هذا كله؟  
– كنت أتمنى أن أسأله ولكنه اختفى تماماً.

صممت قمر مفكرة بعمق دون أن تجد تفسيراً لهذا، ولم تفه بينت شفة، وكذلك أقمر الذي لم يجد ما يجب عن الأسئلة التي تطحن عقله وتسحق روحه التي طالما بحث فيها ولم يجد أية إجابات.

تناسى كلاهما هذا الحدث للعامين التاليين في انشغالهما المستمر بطفليهما ولم يرويا لنور ونوران شيئاً منه، كما أن سلسيل استمر اختفاؤه بعد هذا الحدث، ولم يره أحد بعد ذلك على وجه الإطلاق.

• • •

– إنها مسئوليتك من الآن يا قنديل، وأرجو أن تتعلم من أخطاء من سبقك.

– سمعاً وطاعة يا سيدتي.

• • •

جمعت مائدة الطعام قمر وأقمر ونور ونوران وأطفالهم في بيت أقمر، وفي أثناء انهماكهم، دخل عليهم رجل متوسط العمر ذو هيبة ووقار، طويل القامة عريض المنكبين تبدو على وجهه إمارات الدعة والهدوء، وتزين شفثيه ابتسامة دائمة ثابتة لا تتقلص ولا تتسع، ألقى عليهم التحية، فتوقفوا جميعاً عن الطعام وتسمروا وكأن على رؤوسهم الطير، ونظروا إليه وقد فغروا أفواههم في دهشة عارمة من هذا الوجه الذي يرونه للمرة الأولى، بادرهم الرجل قائلاً :

– أنا قنديل، معلمكم الجديد، أرسلتني أورشليم لتستعيدوا دروسكم بعد السنوات الثلاثة المنصرمة التي انشغلتم فيها بأطفالكم الأعزاء، واليوم سوف يحضر أطفالكم معنا الدرس أيضاً.

ما زال الجميع على نفس الوضع المتجمد وكأنهم تماثيل من الشمع، وكانت قمر هي أول من تماكنت رباط جأشها كعادتها، فصاحت متسائلة :

– وأين سلسبيل؟

فردّ قنديل بلهجة قاطعة كالسيف البتار والابتسامة لا تفارقه :

– تأمركم أورشليم بنسيان هذا الاسم وعدم تكراره ثانيةً أبداً. والآن سأنتظركم في غرفة الاستقبال، فاتبعوني بعد انتهائكم من طعامكم.

والثفت مغادراً في سرعة وخفة، وسط العيون التي كانت حتى هذه اللحظة ذاهلة.

دلف الجميع إلى غرفة الاستقبال الأنيقة في بيت أقرم دون أن تراوهم الدهشة والرغبة في الفهم، وكان نور – الذي كان بعادته قليل الكلام –

أول من تكلم، فبادر قنديل قائلاً :

– من أين جئت يا قنديل؟

– أرسلتني أورشليم.

– ولكننا لم نرك من قبل.

– ولكنني أعرفكم جميعاً جيداً.

– إنك تسبب لنا حيرة شديدة.

وهنا تدخل أقرم قائلاً :

– هل سنكمل حياتنا في هذه الألغاز؟

وعلقت نوران :

– هل ننتظر أن يظهر أحدهم ويخفي آخر دون أن نعرف ماذا حلّ بالأول وأتى بالثاني.

وقالت قمر وقد تساوى شعورها تجاه سلسيل مع شعورها تجاه قنديل،

نفس الشعور بعدم الارتياح :

– على الأقل عرفنا بنفسك.

أدار قنديل عينيه الثابتين فيهم جميعاً، ثم عقد كفيه خلف ظهره وشدّ

جذعه وكأنه سيلقي خطبة عصماء، ثم هدر صوته بعدها كالرعد :

– اسمعوا جميعاً، لقد سبق وعرفتكم بنفسي عندما ذكرت اسمي ومهمتي،

وهو كل ما تحتاجون معرفته عني، ومن الآن فصاعداً سوف تسمعون

وتطيعون، الأسئلة غير مسموح بها على وجه الإطلاق، سوف تتلقون

فقط ما أقوله لكم، وأنا غير مسئول إذا ما تمت مخالفة هذه الأوامر،

فسيحل بكم غضب أورشليم.

بغتوا جميعاً من عنف رد فعل قنديل، حتى الأطفال توقفوا عن صخبهم،

والتزم الجميع الصمت، ولكن ابتسامة ساحرة مستهزئة زينت صمت

قمر، استطرد قنديل بصوت أقل ارتفاعاً مع احتفاظه بنبرة حادة :

- إنكم ستتعلمون مع أطفالكم، بمعنى أنكم ستكتسبون من فطرتهم النقية ما سوف يعينكم على اكتشاف أنفسكم، وهو أمر يسير، فما عليكم إلا مراقبة هؤلاء الأطفال الأبرياء، ستجدون ضالتكم بالتأكيد في سلوكهم. ولازلت أؤكد عليكم بضرورة الاختلاء إلى نفوسكم، اجثوا داخل أرواحكم النقية ستجدون معين السعادة، كما أوصيكم بالخير، فكروا في الخير وافعلوه لأنفسكم ولمن حولكم، ولا تسمخوا للشراً أبداً بالترسب إلى نفوسكم فيظهر أسوأ ما في بشريتكم... أترككم الآن لتستوعبوا ما قلت، وسأعود لكم في وقت لاحق.

واختفى دفعة واحدة من أمامهم، ولازالت الابتسامة الساخرة تزين وجه قمر.

(٥)

صعدت قمر إلى سطح البناية المهجورة المجاورة لبيتها الذي لا سطح له، كانت تحب أن تفعل ذلك دومًا يوم ظهور الهلال من كل شهر، كانت تعشق هذا الجلال الكوني الآسر، هذه السماء المرصعة بملايين من قطع الألماس المتنوعة الأحجام على خلفية سوداء مدلهمة، ويظهر الهلال وسط أنوار النجوم التي تفصل بينها ظلمة السماء وكأنه الأمل الباقي دومًا، وكأنه وعد الله الحق. وكان أقمر يعرف هذه العادة عن زوجته، فما أن يظهر الهلال وتختفي قمر حتى يعرف مكانها، فيتركها لخلوتها بعض الوقت، ثم يصعد لينضم إليها ليتشارك معًا هذا الجمال الرباني المهيب.

وفي هذه الليلة، بعد انتهاء درس قنديل، صعدت قمر مبكرة إلى أعلى، فقد كان الوقت لا يزال ساعة غروب الشمس، ولم يكن الهلال مرئيًا بعد، إلا أنها صعدت لأنها كانت في حاجة إلى الاختلاء بنفسها والتفكير عميقًا، وكان أول ما فعلته فور صعودها إلى السطح هو أن رفعت وجهها إلى السماء التي اكتست بلون الغروب، ودار في رأسها هذا الكلام دون أن يخرج من شفيتها :

— يارب، أنت أعلم بنا وبحالنا، ساعدني يارب لأفهم، ساعدني لأعرف، ساعدني.. فلن يساعدني سواك.

ثم أخذت تشرع المكان جيئةً وذهاباً وقد استعر عقلها بالأسئلة والتحليلات، وأخذت تستعيد كل ما حدث بالتفصيل منذ يوم مجيئها إلى هذه المدينة وحتى هذه اللحظة، وأخذت تعمل على ربط الأمور ببعضها البعض، وراجع عقلها كل ما قيل لهما أولاً من سلسيل ثم الآن من قنديل، وتأكدت مع التفكير أنها محقة فيما ظنته في قنديل فور ظهوره، فما هو إلا صورة أخرى من سلسيل وسوف يكرر نفس كلامه، إن هذا الكلام المتكرر معناه رغبة دائمة في أن يظلوا في نفس الدائرة، يدورون دون نقطة بداية ولا نقطة نهاية.. ولكن السؤال هو: لماذا؟ لماذا تريد أورشليم أن تجسهم في دائرة مغلقة لا خروج منها؟ هل بغرض العيش في سلام كما كان يقول لهم سلسيل؟ ولكن قمر لا تشعر إلا بسلام ظاهري يتعلق بمتطلبات الحياة اليومية المباشرة، لكن أين سلام الروح؟ هل من سبيل إليه؟ ومن سيدُّها عليه؟

وعاد عقلها يفحص كلام سلسيل وكلام قنديل، وتبينت أن قنديل أكثر حدة وصرامة ولا يقبل سوى السمع والطاعة بخلاف سلسيل الذي كان أكثر مرونة، فهل هذا معناه اختلاف أيضاً في أسلوب تعامل المدينة معهم من الآن فصاعداً؟ وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فإن هذا معناه إنها تتحول من سيء لأسوأ وأن القادم سيكون حتماً أسوأ، ولكن كيف سيأتي القادم بعد قنديل وسلسيل؟ إنها أدوار مرسومة.. وما سرُّ اختفاء سلسيل؟ كانت قمر متأكدة أن معرفتها بسر اختفاء سلسيل سوف يحل الجزء الأكبر من هذه الألغاز.

وفي أثناء استغراق قمر في أفكارها دخل أقمر، فلم تشعر به إلا عندما التفتت ووجدته في مواجهتها فانتفضت بعنف، فاحتواها أقمر بين ذراعيه وربت على ظهرها بحنان حتى هدأت، ثم جلسا معاً على السور وقد خيم الظلام وبدأت السماء تظهر ألماساتها، همس أقمر :

– هل كنت مستغرقة في التفكير إلى هذه الدرجة يا قمر؟

– نعم... للغاية.

– هلا شاركتني فيما يدور في عقلك؟

همست قمر بصوت شديد الخفوت :

– لقد اختفى سلسبيل لأنه خالف أورشليم.

فبدأ على أقمر الاندهاش الشديد، فأكملت قمر :

– وسوف يختفي قنديل إذا ما كرر الخطأ نفسه.

– أي خطأ؟

– لم أعرف بعد، ولكنني ربما أعرف بقليل من التفكير.

– لو سمعنا أورشليم فستنزل غضبها بنا يا قمر.

فاعتدلت قمر قائلة في صرامة :

– اسمع يا أقمر، إن لنا إلهًا واحدًا هو الذي خلقنا، وذلك باعتراف

أورشليم نفسها، وهذا معناه أننا عباده الذين يجبهم ويهتم بهم

وبتصريف شئونهم، وهذا معناه أيضًا أنه وحده الذي يقرر مصيرنا.

فبدا الانزعاج الشديد على أقمر، وقال لزوجته وكأنه يستعطفها :  
- أتوسل إليك يا قمر ألا تقولي ما قد تندمين عليه، أرجوك يا قمر لا  
تفسدي حياتنا وحياة أولادنا.

- إن من يريد أن يفسد حياتنا وحياة أولادنا هو من يريد أن يفرض  
علينا أمراً واحداً وفق مزاجه، يريد أن يفعل ما لم يُقرّه الله على  
عباده، لقد خلق الله الناس مختلفين، أؤكد لك أن الاختلاف هو  
أساس الحياة.

أطبق أقمر بكفه على فم زوجته، فأزاحته بحدة وقامت من جانبه وهي  
تستمر في كلامها وكأنها تفكر بصوت عالٍ :

- لقد اختفى سلسبيل لأنه فعل ما يؤدي إلى إبراز الاختلاف.. نعم..  
يوم رأته يا أقمر في ساحة القبة الذهبية كان يفعل شيئاً لا تريده  
أورشليم، شيئاً يبرز الاختلاف، وقد ذكرت يا أقمر من قبل أن هذه  
المباني الجليلة التي تعلوها رموز لا نفهمها ربما تكون صوراً لعبادة  
الإله الواحد، إذن فقد كان سلسبيل... ربما... يصلي، ولكنها صلاة  
تخص فقط أتباع نصف الدائرة على شكل هلال، نعم، إن إبراز  
الاختلاف هو الذي يزعج أورشليم لأنه يمنعها من السيطرة علينا  
وفرض ما تريد على إرادتنا وحياتنا.

وما إن أنهت قمر الحرف الأخير من عبارتها، حتى اهتز المبنى الذي يقفان  
على سطحه بشدة، حتى سقط كل منهما على الأرض، فأمسك أقمر

بيد قمر ونزلا بأقصى سرعة على السلم وهما يتخبطان في جوانبه حتى  
وصلا إلى الطريق، وكان كل شيء يهتز بعنف، وظلا يجريان وهما  
يفكران في أولادهما، وعندما وصلا إلى منزلهما؛ كانت الاهتزازات القوية  
قد بدأت تتلاشى، لكنهما وجدا نور ونوران بيكيان، وكان حولهما  
ولدهما ضياء وهلال، كما كان نجم يتعلق برقبة نوران مدعورًا وهو  
يصرخ، فوقف قمر وأقمر، ثم سأل أقمر :  
- أين شمس؟

فنظر كل من نور ونوران إلى بعضهما البعض وهما ينتحبان، فصرخت  
قمر في وجهيهما :  
- ليَجِبني أحد.. أين ابنتي؟  
فبادرها نور وسط دموعه :  
- لقد.. لقد تهدمت عليها إحدى حوائط غرفة الاستقبال في بيتكم،  
ف... فماتت في الحال... ثم... اختفى جثمانها ولم يعد له أي أثر.  
وسقطت قمر مغشياً عليها.

خيّم الحزن الشديد أيامًا بطولها على الجميع، ولم يكف نجم عن البكاء  
إلا في بعض فترات نومه القصيرة المتقطعة، كان الطفل يشعر أنه فقد  
شطره وأنه أصبح غريبًا في الدنيا بلا توأمه.

عادت غرفة الاستقبال إلى سابق عهدها من النظافة والتنسيق، وتمت إعادة بناء الحائط الذي تهدم، إلا أن ما كان يقطع قلب قمر وأقمر ليس لكون ابنتهما وقرة أعينهما قد ماتت فقط، ولكن لكونهما حُرما من أي آثار تذكروهما بها، حتى دمها الذي سال بعد إصابتها القاتلة اختفى مع جثمانها، كما أن أثوابها البسيطة وألعاها وكل حاجياتها قد اختفت جميعها وكان الأرض قد انشقت وابتلعت كل شيء يخصها، كأنها لم تكن.

ولم يكن أقمر - الذي اعتصر قلبه الحزن على وفاة ابنته - بقادر على مواجهة زوجته الحبيبة بالحقيقة المرّة، وهي أنها هي السبب في مصرع ابنتهما وحرمانهما للأبد منها بتعديها حدودًا وضعتها أورشليم وحذرهم من خرقها سلسبيل أولاً ثم قنديل. ولم تكن قمر بحاجة لمن يذكرها أو ينيها، فقد كانت تعرف وحدها أنها دفعت ابنتها الغالية ثمنًا لأفكارها، ثمًا لرغبتها في التحرر من هذه العبودية البراقة التي تفرضها عليهم أورشليم باسم السلام، هذه العبودية التي يغفل عن حقيقتها الجميع حتى زوجها. وكانت دومًا في همسات صلواتها تدعو الله أن يتغمد ابنتها برحمته، وأن يلهمها الصبر ويثبت قلبها وعقلها على ما انتوت عليه. إنها تعرف أن الثمن لا بد وأن يكون غاليًا، ولكنها قد اختارت ولن تتراجع عن اختيارها، حتى إذا كان الثمن هو حياتها ذاتها.

• • •

– أعتقد أنهما ستتقبل فيما بعد يا سيدتي، فهذه لطمة كبرى ستعيدها إلى  
رشدتها.

– لا يمكن أن تعرف أبداً ماذا يدور في عقول البشر ونفوسهم يا قنديل،  
لا تعرفه إلا عندما يخرج على ألسنتهم.

• • •

كانت قمر تشك؛ ثم أصبحت على يقين؛ من أن أورشليم تسمع كل  
كلامهم وحتى همساتهم، وأنها قد جئدت من حوائطها جوايسسَ ينقلون  
إليها كل الأصوات. فانتبهت قمر إلى ضرورة أن تتوقف عن الكلام مع  
عزمها على أن تستمر في البحث عما تريد معرفته، ولكنها لم تكن  
تعرف وسيلة أخرى للتواصل مع أقمر ونور ونوران ومع الأطفال سوى  
الكلام، لكن فكرة براءة لمعت في رأسها، وبدأت في تطبيقها أولاً على  
ابنها نجم. كان نجم لا يزال في حالة على غير ما يرام، فبعد مرور قرابة  
الشهرين على وفاة أخته واختفاء جثمانها، كان لا يزال يشعر بالوحدة  
والوحشة، رغم كل محاولات صديقيه الصغيرين ضياء وهلال لانتراعه  
من أنياب أحزانه. وقد بدأت الأسئلة تتوالى في رأسه الصغير وهو لا يجد

لها إجابة، فمن الذي حرمه من توأمه؟ ولماذا؟ ولماذا لم يترك من فعل هذا أي أثر ولو بسيط يذكره بها؟ ولماذا ولماذا....

وفي أحد الأيام، وجد أمه قمرًا تقبل عليه، وتجلسه على ساقها، وتنظر في عينيه مباشرة، لم يفهم في البداية ماذا تعني، ولكنه بدأ بذكائه يدرك أنها تحادثه، فقد كانت عينيها تتبدلان بأحاسيس مختلفة تجمع بين الحب والحنان والمواساة، ولكنه لم يستطع أن يفسر على وجه التحديد كلامها الصامت هذا. فظل مغمًا النظر في عينيها، ثم بدأ ييادها نظرات مماثلة تجمع بين الشكر والتعبير عن الحزن، فتهلل وجهها وأشرقت عيناها واحتضنته بقوة وكأها وجدت كنزًا، ولم يفهم الصغير بعد ما هدف والدته من كل ذلك؟

كانت قمر قد عقدت العزم على الفرار، على الخروج من هذا السجن الذهبي الذي وضعتهم فيه أورشليم، والذي منعهم من خلاله من الإطلاع على الدنيا بأسرها، وسجنتهم في زنزانة دائرية لا نهائية من الأفكار التي لا سبيل لغيرها، فقررت قمر وضع خطة محكمة للفرار من المدينة بصحبة زوجها أقمر وابنها نجم، ولم تكن تكتف حقا بمصير نور ونوران وأبنائهما رغم حبها الكبير لهم، لكن إزعاجهم التام لأورشليم وعدم توفر أدنى قدر من الشجاعة لديهم لقبول أية درجة من المخاطرة جعل قمر تستبعدهم تماما من خطتها، وتؤثر الرحيل مع أسرتهما الصغيرة بدوهم.

وبدأ تفكيرها يتركز على تدريبات شاقة ويومية تقوم بها مع ابنها نجم، ثم أصبحت تقوم بها مع زوجها أقمر، كلها تدريبات على التخاطر الذهني، بدأ الأمر في البداية صعبا للغاية، وما أدهشها حقا هو أن استجابة ابنها كانت أسرع كثيرا من استجابة والده، وأن الطفل أصبح يفهم نظرات أمه ولفتها، بل أصبح ينفذ لها ما تطلبه دون أن ينبس أي منهما ببنت شفة، وقد جعلها ذلك تحتويه كثيرا في أحضانها فرحة بهذا الطفل البارع الذكي الذي يخطو بالكاد إلى السنة الرابعة من عمره، وأحسّت أن الله

معها يساعدها ويعوضها عن حرمانها من ابنتها، واغتبط الطفل برضا والدته وفخرها به وأحس بسعادة لا توصف من هذه اللعبة الجديدة؛ لعبة الكلام دون صوت؛ حتى أنه حاول ما في وسعه لتطبيقها على أعبابه وعلى الجمادات من حوله لكنه فشل!

أما أقمر، فقد تطلب الأمر معه مجهودًا أكبر، خاصة أنه كان يجهل السبب الكامن وراء هذا التحول إلى الصمت الكامل الذي بدأت تنتهجه قمر، فهي لم توضح له ما اعتزمت عليه حتى لا يفزع ويتراجع عن مساعدتها، وفي جميع الأحوال هي ما كانت لتتركه وحده ألعوبة في يد أورشليم، كانت ستصطحبه معها حتى ولو رغمًا عنه.

وفي أثناء إحدى جلساتها معًا، دخل عليهما قنديل وقد بدا عليه الاستياء، وبادرهما قائلاً :

– ماذا تفعلان؟

فارتبك أقمر، لكن قمر سارعت وقالت :

– نتأمل.. كما سبق ونصحتنا.

فنظر إليها قنديل وقد ضيق عيناه، ثم اقترب منها فانتصبت قامتها في تحد، فقال لها :

– ماذا تخفين يا قمر؟

فمنعت قمر بمعجزة ابتسامه ساخرة من القفز على شفيتها، ثم قالت :

- وهل يُخفى شيء على أورشليم يا قنديل؟
- هناك أمر لا أفهمه يدور هنا، وأريد أن أفهمه فوراً.
- وكان أقمر قد تمالك نفسه، فردَّ عليه قائلاً :
- هل إذا نفَّذنا ما طلبتموه منا تكون الأمور غير مفهومة؟ إننا نمارس التأمل، ونحاول أن نبحت داخل ذواتنا عن الخلاص والسلام، أليس هذا ما طلبتموه منا أنت وسابقتك؟
- فألجم الكلام قنديل، ونظر إليهما شزراً، ثم غادرهما دون أن يزيد كلمة أخرى.

• • •

- لماذا فعلت ذلك أيها الغبي؟ هل طلبتُ منك ذلك؟
- إنني... ظننت أن...
- انتهى، ولا تفعل إلا ما أمرك به، اتركهم في حالهم، يبدو أن قمر قد عادت إلى عقلها وآثرت السلامة.

• • •

انعزل كل من قمر وأقمر شهورًا طويلة بعيدًا عن نور ونوران وطفليهما، ولم يكن نور ونوران يدريان سببًا لهذه العزلة الاختيارية سوى حزن قمر وأقمر على ابنتهما، وقد تركهما قمر وأقمر على اعتقادهما هذا، وتفرغا لممارسة حياتهما الصامتة الجديدة مع ابنتهما، وقد تلقى أقمر أول رسالة عقلية كاملة من قمر بعد حوالي ستة أشهر من التدريب الشاق، ولم تعرف قمر بوصول الرسالة إلى عقل أقمر إلا عندما تلقت ردًا عليها منه، فطوقته بذراعيها بحنان جارف وقد دمعت عيناها من الفرح، وشكرت الله كثيرًا على مساعدته لها، ورأت أنه قد آن الأوان لأن يعرف أقمر بخطتها، فبدأت تخاطبه عقليًا :

– أقمر، الآن أقول لك لماذا نفعل ذلك، إن أورشليم تسمع حتى همساتنا، وكان لابد من إيجاد وسيلة للتخاطب بيننا بحرية كاملة دون أن نسمعنا المدينة.

– حسنًا، وما الأسرار التي تريدين أن نتبادلها بحيث لا يسمعها غيرنا؟

– سرٌّ واحد يا أقمر : الخروج من أورشليم.

فأفلتت صيحة دعر من أقمر وكاد يقول شيئًا بلسانه، فحذرتة قمر بوضع كفها على فمه، فعاد ليخاطبها بعقله :

– هذه مخاطرة هائلة يا قمر، إننا لا نعرف ما ينتظرنا بالخارج، ثم ما الذي يدفعنا لمغادرة حياة السلام والدعة إلى مجهول لا نعرفه؟

- هذه ليست حياة سلام يا أقمر، إننا محبسون لحساب أورشليم  
وخدمها الذين ترسلهم إلينا واحدًا تلو الآخر ليتلوا علينا ما تريده.
- ولكنها تريد لنا أن نعيش في سلام.
- إنها تريد أن نعيش في عبودية، ولا يمكن أن تكون العبودية سلامًا، إن  
الحرية هي أثن ما يمنحه الله للإنسان، والحرية هي التي تمنحه القدرة  
على الاختيار، ومن هنا يأتي الاختلاف بين البشر، هذا هو ببساطة ما  
تجاربه أورشليم وتريد أن تفرض علينا عكسه.
- ما معنى كلمة "عبودية" هذه؟ من أين أتيت بها؟
- يا أقمر، افهمني، ألسنا عباد الله؟ إذن، لا بد ألا تكون عبوديتنا إلا  
له، والعبودية تسليم كامل لنفسك وروحك وعقلك وإرادتك، وهي لا  
تكون إلا للخالق، أما من دونه فلا يمكن أن يأخذ مكانه ويفعل فعله،  
لأن له وحده الكمال والحكمة المطلقة، وتسليمك لغيره بما تُسلم له به  
أمرٌ يجب أن تقاومه وتجاربه.
- قام أقمر وأخذ يذرع الغرفة جينةً وذهابًا وهو يعمن التفكير.. ثم نظر إلى  
قمر وخاطبها عقليًا :
- ولكن يا قمر، ما هي الخيارات التي تريد أن تختارني من بينها، ومن  
أجلها تبغين الحرية؟
- لا زلت لا أعرف، ولكنني سأعرف حتمًا في يوم من الأيام، لن يعوق  
شيء معرفتي طالما توفرت لدي الرغبة في ذلك.

– ومن أين سنأكل ونشرب ونربي ابننا هذا يا قمر إذا ما خرجنا خارج  
الأسوار التي تحمينا إلى دنيا العراء التي لا نعرف عنها أي شيء؟  
– أنت تفكر في المأكل والمشرب، وأنا أفكر في الحرية، فأيهما أبقى يا  
أقمر؟

عاد أقمر يمعن في التفكير، ثم التفت ليخاطبها، إلا أنهما فوجئا معاً  
بنوران، التي لم تدخل حجرة الاستقبال هذه منذ شهور طويلة، تدخل  
وقد ارتعش جناحها من الانفعال وبدا على وجهها الاضطراب، وكانت  
تحمل في يدها لفافة صغيرة مطوية تبدو وكأنها من رقوق الجلد، ويبدو  
من أطرافها أنها تحتوي على كتابة. جلست نوران، وقد بدا على وجهها  
التوتر الشديد، فاقتربت منها قمر وبادرتها قائلة :  
– سلامتك يا نوران، هل أنت مريضة؟

فهزّت نوران رأسها في صمت، ثم مدّت يدها إلى قمر مناولة إياها  
اللفافة، فتناولتها قمر وفصّتها فوجدت أنه يعلوها رمز الخطين المتقاطعين  
الذي رآته قمر كثيراً فوق عدة مبانٍ في المدينة، ثم وجدت كلاماً كثيراً  
بلغة لم تفهمها يبدو وكأنه مقسم إلى مقاطع أو أجزاء متفرقة متتابعة،  
وقد تكرّر الرمز ذاته كثيراً عبر مطويات الرق التي بلغت تقريباً سبع  
مطويات صغيرة.

قلبت قمر المطويات بين يديها، وشاركها أقمر، ثم عادا ينظران إلى  
نوران، وقبل أن يسألها، بادرتها قائلة :

– لقد مرَّ قنديل اليوم من أمام منزلنا مسرعًا، وقد تصورنا أنه قادم إليكما، لكنه عبرَ منزلكما أيضًا دون أن يلتفت وكان تقريبًا يعدو، فتعجبنا – نور وأنا – من منظره، ثم التفتنا لنعود إلى داخل البيت، فلمحنا الرقوق التي بين أيديكم أما باب بيتنا، فاعتقدنا أنها وقعت من قنديل سهوًا، فالتقطناها وحاولنا اللحاق به لنعطيها إياها، ولكنه كان قد اختفى كعادته، فعدنا إلى بيتنا، ووضعناها على منصدة في حجرة الاستقبال، وسهونا قليلاً، فعدنا لنجد ضياء وهلال وقد فضًا رباطها وأخذًا يلهوان بها، ففزعنا فزعًا شديدًا، وجمعناها ونحن ندعو الله ألا يكون قد أصابها أي تلف، ورأى نور أنه من الحكمة أن نضعها بعيدًا عن أيدي طفلينا، ولكنهما يتسلقان جميع الأماكن وتمتد أيديهما إلى كل شيء، فأثرنا أن نأتي بها إليكما.

استمع قمر وأقمر إلى نوران بانتباه كامل، وتبادلا نظرة عميقة فيما بينهما، وأمعنا النظر ثانية في الرقوق التي بين أيديهم، ثم التفتت قمر وقالت لنوران في حسم :

– اتركي الرقوق هنا يا نوران، ولا تخافي عليها، سوف أحفظها في مكان آمن حتى يظهر قنديل ونعطيها له... ولكن لماذا يبدو عليك كل هذا التوتر؟

فأجابت نوران بعد شيء من التردد :

– لقد خفنا من...

وسكتت... وفهمت قمر، فأكملت في شجاعة وهي تكتم دمعة حزن  
اعتصرت قلبها وكادت أن تطفر من عينيها :  
- غضب أورشليم.

فطأطأت نوران برأسها وانحدرت دمعتان ساختان على وجنتيها،  
فاحتضنتها قمر بحنانٍ بالغ، وكفكفت لها دموعها مغممة :  
- لا عليك يا حبيبي، هوني عليك، كل الأمور ستسير على ما يرام،  
لقد رضينا بقضاء الله.

وظلت تمدهى من روعها حتى هدأت، ثم طلبت منها أن تعود حتى لا  
تتأخر على زوجها وطفليها. واستجابت نوران ببساطة، وما إن خرجت  
حتى التفتت قمر إلى أقمر وخاطبته بعقلها :  
- أقمر، إننا لن نرَ قنديلاً مرة أخرى.

مرَّ يومان على هذا الحدث، لم تفلح أثناءهما قمر في فهم أي من النصوص  
الموجودة في الرقوق، وتمتعت طويلاً في هذا الرمز الذي بدأ يصبح مألوفاً  
بالنسبة إليها، هذا الرمز الذي يمثل خطين متقاطعين، لكنها لم تستطع  
أبدًا استنتاج ماهيته ولا دلالته، كما لم تفلح في فك رموز هذه اللغة  
الموجودة أمامها لتفهم محتوى هذا النص.. وفي نهاية اليوم الثاني طوت  
الرقوق ووضعتها فوق رفٍّ عالٍ وهي تكاد تكون واثقة من أن قنديلاً  
لن يظهر مرة أخرى ليستعيد ما سقط منه سهواً، فقد كانت متأكدة من  
أن أورشليم لن تغفر له ذلك قطعاً، فهذا هو ذا رمز جديد يظهر ليبرز

اختلافًا عما تريد تقديمه لهم، وسيلقى قنديل نفس مصير سلسبيل،  
وعليه، فلن يروه مرة أخرى، وتساءلت قمر : من هو التالي؟  
ثم شعرت أنهم يجب أن يسارعوا بمغادرة هذه المدينة قبل أن تزداد  
الأمر سوءاً، لقد كانت قمر بذكائها الفطري تتوجس خيفة من  
أورشليم، فقد استنتجت أن من يفعل فعلها في استعباد العقول والنفوس  
بهذا الشكل لا بد له من استخدام العنف في نهاية الأمر حتى يفرض ما  
يريده بالقوة، وقد خسرت ابنتها في أولى هذه المواجهات، وهي تريد أن  
تتجنب مزيداً من الحسائر.

كان الوقت متأخراً، وكان أقمر زوجها ونجم ابنها قد سبقاها وأصبحا  
يغطان في نوم عميق، فجلست تنتظر وعيناها تأبيان النوم، وقد شحذت  
نفسها وعلت همتها واستعدت للجولة الأخيرة... فغداً سوف تغادر  
أورشليم.

ومع أول خيوط الشمس، أيقظت قمر زوجها وابنها في هدوء، ثم  
خاطرتهما معاً :

- أقمر، نجم.. سوف تغادر أورشليم الآن.

فبدا على أقمر القلق، وردَّ عليها بخاطره :

- الآن يا قمر، اصبري قليلاً، لننتريث... لنفكر...

- كلا، الآن وفوراً، وقبل المزيد من المفاجآت.

تحرك ثلاثتهم في خفة وهدوء وكأنهم يخرجون معاً للنزهة والترريض، وأخذوا يسرون في اتجاه أسوار المدينة، وبعد وقت طويل تخطى الساعتين وصلوا معاً إلى الأسوار، ورفعت قمر رأسها أمام البوابات الهائلة الموصدة التي تحتاج إلى عشرة رجال على الأقل لرفع أقفالها، ثم نظرت إلى الأسوار العالية، كانت الأسوار أعلى مما اعتقدت في جولاتها السابقة بالمدينة، وكانت الأبواب أكثر صلابة مما تخيلت، فوقفت تتأمل في صمت وعقلها يعمل بأقصى طاقته وسرعته، حتى زفر أقمر في ضيق وخطرها قائلاً :

– وما الذي سنفعله الآن يا قمر؟ كيف برأيك سنعبّر هذه الأسوار والأبواب؟

– لا بد من وجود طريقة يا أقمر؟ حتماً هناك طريقة...

ثم اقتربت قليلاً من إحدى البوابات العملاقة، إذ لفت نظرها أن البوابة مقسومة في نهايتها بارتفاع عن الأرض يبلغ حوالي ثلاثين سنتيمتراً، وعندما دققت النظر وجدت أن هذا الجزء المقسوم يمكن رفعه إذا ما تم تحريك زلاجتين جانبيتين صغيرتين، وهكذا يمكنهم أن يعبروا خارج الأسوار ولكن على بطونهم. وأشرق وجه قمر عندما اكتشفت هذا الأمر، وبدأت تشرحه تخاطراً لأقمر الذي لازال منزعجاً من فكرة الخروج من المدينة، لكنها ربتت على كتفه ثم على رأس ابنها ومدت يدها لتحرك الزلاجتين الجانبيتين اللتين يعلوهما الصدأ في الجانب الأيمن من البوابة.

بمجرد أن فعلت قمر ذلك؛ اهتزت الأرض وارتعدت البوابات حتى كادت تنخلع من أماكنها، وخيل لأقمر أن الأسوار ستهوي فوق رؤوسهم، وسمعوا هديرًا هائلًا لم يسبق أن سمعوه من قبل، صوتًا أنثويًا يقول لهم :

– أهكذا تخونون أورشليم؟

وتعلق نجم بذعر شديد بأبيه الذي حمله وهو يرتجف، وارتجفت قمر أيضًا، لكن ظلت يداها تعالجان المزلاجين في إصرار، وظل أقمر يتلفت حوله وهو يحاول استيعاب مصدر الصوت، حتى سمعه يقول مرة أخرى :

– الخيانة جزاؤها الموت... الموت.

وظلّ صدى الصوت يهدر حتى خيل لأقمر أن الهواء نفسه يتحدث، وكانت قمر قد نجحت في تحريك المزلاجين ورفع الجزء الأدنى من البوابة، وفي لحظة خاطفة وكان لا يزال صدى كلمة الموت يدوي في أنحاء المدينة الغاضبة، انتزعت قمر ابنها من بين يدي أقمر ودفعته أسفل البوابة وهي تصرخ بكل ما فيها من قوة :

– انطلق إلى الحرية يا نجم، ولا تسمح لأحد أن يسلبها منك أبدًا.

وفي ثانية واحدة كان الطفل خارج الأسوار، ووقفت هي وقد تعلقت بأقمر وهي تصرخ بأعلى صوتها :

– افعلي ما تشاءين يا أورشليم، لن تستعيدينا أبدًا بعد اليوم، وإذا متنا  
الآن نموت أحرارًا، وإذا عشنا فإننا نكون قد تحررنا من قيودك معًا...  
وإلى الأبد.

وكان أقمر يرتجف وقد أيقن أنها النهاية، وازداد الاهتزاز بعد عبارة قمر  
حتى بات زلزالاً عنيفًا، وانشقت الأرض بالفعل أسفلهما لتبتلعهما  
معًا... وإلى الأبد.

(٧)

- ماذا يحدث يا بني؟ ما هذا الصوت الهادر؟
- سأل السيد ببحر المقدسي ابنه يوسف، فأجابه الشاب اليافع الوسيم هادئ الملامح ذو العشرين عاماً :
- يبدو أن أورشليم غاضبة يا أبي، لم نسمع لها صوتاً منذ سنوات طويلة.
- فمطّ السيد ببحر شفّتيه، وقال مُتعضّاً :
- لماذا لا تريد هذه المدينة أن تعترف أن زمانها قد ولّى؟
- الله هو وحده الهادي يا أبي.
- عندك حق.. عموماً، اخرج الآن لتجارتك، لكنك لم ترني ما صنعت من الحلّي يا يوسف.
- وتقدم يوسف إليه يُريه ما في جعبته من حلّي رائعة من الأحجار الكريمة، فأبدى والده إعجابه بها، ثم قال لابنه :
- مباحة كلها بإذن الله، نحن في حاجة إلى تمويل عاجل يا يوسف، فقد نفدت آخر نقودنا اليوم.
- خرج يوسف مكللاً برضاء والده، وابتعد عن دارهما المعزولة على الطريق في طريقه إلى القرية القريبة لبييع حليه فيها عند تاجر اعتماد التعامل معه...

وفيما هو في بداية الطريق، شاهد جسمًا على الأرض بين الرمال، تصور للوهلة الأولى أنه حيوان ميت، ثم اقترب ليجده طفلًا، فأسرع الحُطى نحوه فوجده منكفئًا على وجهه، فسقط على ركبتيه بجواره وأدار وجهه فرأى وجهًا جميلًا جفت عليه أنهار من الدموع والتصقت به الرمال وابتضت شفثاه، فاستنتج أنه سار في الصحراء فترة طويلة حتى سقط مغشيًا عليه، فحمله، وعاد به إلى الدار، وعندما وجده والده داخلًا؛ لم يصدق أنه ذهب وعاد بهذه السرعة حتى شاهد الطفل بين ذراعيه فاندھش، فحكى له يوسف ما رآه وهو يساعد الطفل على الاستلقاء ويبلل له شفثيه بالماء رويدًا رويدًا، وهنا قال له أبوه في حنان :

- يا بني، اترك لي هذه المهمة واذهب أنت لتجارتك حتى لا تتأخر، سوف أهتم به حين عودتك.

وبالفعل خرج يوسف مسرعًا، وأخذ السيد بحير يبلل شفثي الطفل ووجهه بالماء حتى استيقظ الطفل، وما أن رأى السيد بحير حتى تعلق به وأخذ يصرخ ويبكي، فهدأ الشيخ من روعه وأخذ يربت على ظهره وكتفيه ورأسه وسقاه ماءً، فبدأ الطفل يستكين إلى الرجل الطيب، وحاول السيد بحير أن يعرف اسمه أو من أين هو أو أي شيء، فلم ينبس الطفل ببنت شفة، وظل متعلقًا بالسيد بحير وهو يبكي، فاستمر الرجل في قمدئته حتى خلد إلى النوم.

عاد يوسف إلى الدار محملاً بالبضائع والمشتريات وكل ما كان ينقص البيت، ثم سلّم والده ما فاض معه من أموال، وأخذ يحكي كيف أن الله أكرمه برزق واسع لم يخطر له على بال، وأنه باع حليه إلى تاجر آخر غير الذي اعتاد أن يبيع له إذ أنه عرف أن تاجره مسافر، وأن التاجر الجديد قد ثمن البضاعة بضعف ثمنها تقريباً، وطلب منه أن يوفيه بالمزيد منها في خلال شهر على الأكثر، وأنه قد اشترى المواد الخام اللازمة للعمل، وأنه سيبدأ العمل فوراً حتى يستطيع أن يوفي الطلبة وقتها من العمل المتقن حتى يسلمها في ميعادها...

وبعد أن انتهى من حكايته انتبه إلى وجود الطفل نائم على فراشه، فاقرب منه وربت على رأسه وقال لأبيه :

– يبدو يا أبي أن هذا الطفل فأل حسن.

– الرزق بيد الله وحده يا بني.

– ونعم بالله يا أبي، لكنني أقصد أنني تفاءلت به، هل تمنع في أن يعيش

معنا وأن نربيه؟

– يا بني، ربما يكون وراءه أمٌ يتقطع قلبها الآن على فراقه دون أن

تعرف مكانه، أو أبٌ يلتاع لفقده.. قبل أن نتخذ قراراً بشأن

مستقبله لا بد أن نعرف ماضيه وحاضره أولاً.

نظر يوسف إلى الطفل بعطف متدفق وقد شعر أنه يجبه للغاية وأنه سيجد

صعوبة حمة لفراقه، لكنه استمع لصوت العقل وانتظر ما ستأتي به الأيام.

حاول السيد بحير طوال أسبوع كامل ملاغاة الطفل لمعرفة اسمه على الأقل، فواجه صعوبات همة، فقد أبى الطفل أن ينطق كلمة واحدة، وظل ينظر إليهما وكأنه يحدّثهما بعينيه، وكانا يفهمان حيناً ولا يفهمان أحياناً، وكان يوسف منشغلاً طوال اليوم في صناعة الحلي في ورشته الصغيرة الكائنة في ساحة خلف الدار تحتوي على فرن صغير وأدوات غاية في الدقة تساعد في صقل الأحجار الكريمة المتنوعة التي يستخدمها في صناعته، وكان يوسف فناناً بحق في إبداع الحديد والمبتكر من الحلي.

وفي يوم كان السيد بحير منشغلاً في إعداد الطعام، فتسلل الطفل إلى الساحة الخلفية التي يعمل فيها يوسف في صمت تامٍ وهدوءٍ وتركيزٍ كاملين، وجلس الطفل قرابة الساعة يتأمل ما يفعله يوسف وقد انبهر بشيء لم ير مثله أبداً من قبل، وفي البداية، لم ينتبه يوسف لوجود الطفل، ثم انتبه إلى وجوده بعد فترة ليست بالقصيرة، فخاطبه قائلاً وهو يبتسم ابتسامته الجميلة الصافية :

– ألن تقل لي أيها الطفل ما اسمك؟ كم أود أن أعرف من أنت؟ ومن أين أتيت؟

وظلّ الطفل ينظر إليه ويبدو عليه الفهم لكنه يرفض الإجابة، فنظر إليه يوسف في صمت وهو لا يزال يبتسم وقد تكرر سؤاله في عقله رغماً عنه، لكن المفاجأة المذهلة كانت تلقيه إجابة، وساعتها فقط احتضن الطفل بقوة وجرى إلى والده.

- ماذا تقول يا بني؟ التخاطر الذهني؟
- هذه هي الحقيقة يا أبي، صدقني، أنت تعرف أنني قد تعلمت التخاطر الذهني في مرحلة مبكرة من حياتي ثم توقفت عن ممارسته وانشغلت بعملتي، يبدو أن هذا الطفل قد تعود لفترة ليست بالقصيرة من الزمن على أن يتخاطب مع الآخرين بعقله، ولذلك فإنه يجد صعوبة إلى حدٍّ ما في التعبير عما بداخله بالكلام، أو ربما يكون قد نسي الكلام كليةً، لكنه يفهم جيدًا كل ما يُقال له.
- وهل عرفت من هو؟
- اسمه نجم أقمر.
- ثم؟
- لا شيء، لم أستطع أن أعرف أكثر من ذلك، إنه لا يستطيع التعبير ولا حتى بالتخاطر عن أكثر من ذلك، إنه لا يزال صغيرًا جدًّا يا أبي، فهو تقريبًا في الرابعة من العمر، لكن.. يبدو أن له علاقة ما بأورشليم.
- وكيف عرفت ذلك؟
- إنه يشير ناحيتها من النافذة، ويبدو عليه الخوف عند ذكرها.
- ولكن أورشليم مدينة مهجورة منذ مئات السنين.
- الله وحده أعلم بالحقيقة يا أبي، إنني أرى أن نتولى تربية وتعليم هذا الطفل، يبدو أنه طفل نابه، كما أنه من الممكن أن يتعلم مهنتنا ويرع فيها، أنا متأكد يا أبي أنه سيكون له مستقبل معنا.

– ولكنني يا بني كنت أتمنى أن أرى طفلاً من صلبك.  
– يا أبي، أنت تعرف جيداً أنه لا رغبة لي في النساء، كما أن عملي هذا أسعد به الآخرين عندما يرتدون ما أصنع من حلي جميلة ونادرة، وسوف أسعد بتربية نجم، بل سنسعد معاً بذلك، لقد حُرّمنا من الدفء العاطفي منذ وفاة والدتي رحمها الله، ربما قُدر لبيتنا أن يعود إليه هذا الدفء المفقود بقدوم هذا الطفل.

وأدعن الأب دون إبداء أي اعتراض، فقد وجد حُباً كبيراً في نفسه لهذا الطفل. والتفت يوسف إلى نجم وخاطره :

– ستعيش معنا يا نجم، فما رأيك؟

فرفع الطفل عينيه إلى يوسف وخاطره :

– حرية.

فاندesh يوسف ثم رفعه إليه وقبّله وقال له :

– طبعاً ستكون لك كل الحرية، أنت حرٌّ من الآن، وكل ما سنفعله هو توجيهك عن بُعد ولك أن تختار ما تشاء.

فنظر إليه الطفل وقد بدا عليه فهم ما سمع، ثم غمغم :

– حرية.

وكانت هذه هي أول كلمة ينطق بها لسانه منذ وجده يوسف.

(٨)

مرّت الآن خمس عشرة سنة كاملة...

بلغ نجم التاسعة عشرة من عمره، وبلغ يوسف الخامسة والثلاثين، وبلغ السيد بحير المقدسي الخامسة والستين.

نجم الآن هو الذراع اليمنى ليوسف في صناعة الحلبي التي توسعت عبر السنوات المنصرمة، كما توسعت الدار البسيطة التي كانوا يسكنونها لتصبح قصرًا منيفًا تحيط به حديقة غناء، وأصبحت الورشة الصغيرة التي كانت خلف الدار ورشة كبيرة ملحقة بالقصر ويعمل بها على الأقل عشرة أفراد يشرف عليهم يوسف ونجم معًا. وقد امتلأ القصر بالخدم، كما تعلم نجم على يد كل من السيد بحير ويوسف كل معارفه في الحياة، وقد اعتاد عبر السنوات أن يلقب يوسف بـ"أبي" وأن يلقب السيد بحير بـ"جدي"، وقد علمه يوسف حرفة صناعة الحلبي حتى تفوق عليه في إتقانها، وتولى جده مهمة إيفاد معلمين له في شتى العلوم استوعبها نجم بامكانيات عقلية كانت دومًا تذهل يوسف وأبيه ومعلميه معًا. كما أصبح يتقن الحديد بلباقة وحذق، لكنه أيضًا كان لا يزال يتقن التخاطر الذهني، فأصبح يستخدم كلاهما للتفاهم خاصة مع أبيه الذي أصبح مع عشرة السنين يخاطره بسهولة تامة، ولم يفلح السيد بحير في مجاراتهما في ذلك على وجه الإطلاق رغم محاولاته المستميتة.

وكان نجم يعرف أن والده الحقيقي يُسمى أقمر، كما تذكر أن والدته تسمى قمرًا، وكان يعرف أنها هي التي علمته التخاطر الذهني دون أن يعرف أبدًا لماذا فعلت ذلك، كما أنه لم يستطع أبدًا معرفة مصير والديه على وجه التحديد، لكنه استنتج مع سنوات نضجه أنه فقدهما حتمًا بسبب الزلزال الذي وقع في أورشليم يوم خروجه منها، وهو يعرف بالطبع أن يوسف والسيد بحير قاما بتربيته، وكانا يدين لهما بفضل كبير ويجهما حُبًا جمًّا ويكن لهما من التوقير والاحترام ما يفوق كل وصف، وكان دائمًا ما يكرر لنفسه أنه لولا أن يوسف عشر عليه لقضى نحبه حتمًا وسط الصحراء. وقد ساعدته نباهته الفطرية على استعادة الجملة الأخيرة التي سمعها من والدته قبل هروبه من أسفل بوابة أورشليم زاحفًا على بطنه وهو لا يزال طفلًا في الرابعة من عمره، كان يتردد صدى كلماتها دومًا في أذنيه وغالبًا في أحلامه مصحوبة بصوت الزلزال الرهيب :

– انطلق إلى الحرية يا نجم، ولا تسمح لأحد أن يسلبها منك أبدًا.

وقد كان جده دائمًا ما يقول له :

– لقد عثرنا عليك يا بني يوم غضب أورشليم، فكنتَ قَدَمَ سعدٍ وخيرِ علينا.

وكان نجم يسمع في البداية هذه الجملة على سبيل الاعتياد دون أن يمررها على عقله، لكنه تمعن فيها في أحد الأيام، وسأل جده :

– وما الذي من الممكن أن يغضب مدينة مهجورة منذ مئات السنين يا جدي؟

– لا نعرف على وجه التحديد يا بني، لقد كنت أسمع من أبي رحمه الله أنها مهجورة ومسكونة، أي يسكنها الجن، وأن الجن عندما يختلفون ويتقاتلون نبدأ في سماع صوتها الهادر، ثم تهدأ الأمور بعد ذلك وتظل على سكوتها لسنوات كثيرة أخرى، ومنذ وجدناك يا بني لم نسمع لها صوتاً.

– ألم أقل لك من قبل يا جدي إنني لا زلت أتذكر مثل الحلم الكثير من مشاهدنا الداخلية، لازلت أتذكر شكل الشوارع والأبنية، بل لازلت أتذكر شكل البيت الذي كنا نسكنه.

– صدقني يا بني، كلما أسمع منك ذلك أتعجب أيما عجب، فما الذي حدا بأبويك إلى الذهاب إليها؟ بل كيف دخلها أصلاً وأبوها موصدة بمزاييح صدئة لم يقرها أحد منذ مئات السنين؟ لم نسمع قط عن مخلوق اقترب حتى من أسوارها، إنها مكانٌ مسكونٌ كما قلت لك.

– كنتُ صغيراً جداً عندما غادرتها يا جدي، فلا أتذكر إلا مشاهد متفرقة، لكنني أتذكر أبي وأمي إلى حدٍ كبير، وأتذكر أن أُمِّي كانت حنوناً للغاية، وأعتقد يا جدي أنني أتذكر أيضاً أنه كانت لي أختاً توأماً ماتت أو اختفت؛ لا أتذكر على وجه التحديد، كما أتذكر أنه كان لنا جيران لديهم أجنحة على ظهورهم، رجالاً وامرأة وطفلين،

وأتذكر أنني كنت أحبهم لكنني لا أتذكر أسماءهم، تُرى ما مصيرهم؟  
وهل هم الآن أحياء أم أموات؟

فهزَّ العجوز رأسه في أسى وربت على ظهر نجم بحنان ثم قال له :

- نشكر الله أنك بخير يا بني، لقد أصبحت حياتنا أجمل بوجودك فيها.
- لا تتعب نفسك بتذكر الماضي، استمتع بحياتك في الحاضر والمستقبل.
- ولكن الماضي مهم للغاية يا جدي.
- المستقبل أهم يا بني، وإلا ما أنعم الله على الإنسان بنعمة النسيان.
- ولكنني لا أستطيع أن أنسى أيامي في أورشليم.
- أورشليم نفسها نستك يا بني، فلا تذكر من نسيك.

انشغل نجم في الأيام التالية مع أبيه يوسف في الإشراف على تجهيز طلبية كبيرة ومهمة من الحلبي التي طلب صناعتها أحد أمراء الممالك القريبة ليقدمها لابنته كهدية عرس، وكان العمل على قدم وساق ليتم تنفيذ الطلبية وتسليمها في أسرع وقت ممكن، وكان العمل يمتد في الورشة إلى منتصف الليل أو يزيد، وكان يوسف ونجم قد تعودا على معاملة جميع العمال بكرمٍ حاتمي وإنسانية جمّة، فكان العمال جميعاً على استعداد للمبيت عندما تشتد وطأة العمل محبةً ووفاءً لهما، وكان السيد بحير يزور الورشة بين الحين والآخر للاطمئنان على سير العمل، لكن اشتداد وطأة المرض عليه بين الحين والآخر كانت تقعه عن التواصل مع العالم

الخارجي، فيمكث الأيام الطوال في غرفته في القصر، لكن يعاوده في زيارات يومية كل من يوسف ونجم.

ومع بزوغ فجر أول يوم في الأسبوع التالي، كان مندوب الأمير يتسلم الحلبي وهو يشني على روعتها وندرقتها ودقة صناعتها، ويسلم يوسف ما تبقى من أجره؛ وكان مبلغًا طائلاً أضاف إليه الرجل مبلغًا ذهبيًا من المال تحيةً خاصةً لصناع هذه الحلبي المتميزة، بالإضافة إلى طلب آخر بصناعة مجموعة أخرى من الحلبي لابن عم الأمير الذي يحين ميعاد زواجه بعد شهرين وينتظر مجموعة أخرى ليقدمها هو الآخر هدية لعروسه.

وعليه، لم تمتد فترة الراحة أكثر من ثلاثة أيام، عادت بعدها الورشة للعمل بكامل طاقتها لصناعة مجموعة جديدة، مبتكرة ومتنوعة من الحلبي... لكن، لم يكن نجم موجودًا عندما عادت عجلة العمل للدوران. فمع أول لحظة من وقت الراحة، لم يعرف نجم طعمًا للراحة، فقد كانت ذكرى أيامه في أورشليم تلح عليه إلحاحًا دائمًا، حتى إنه في بعض الأحيان كان يعتصر عقله ليتذكر المزيد من تفاصيل الطفولة، ويظل يفعل ذلك حتى يصاب بصداع يكاد يكسر رأسه، كانت الأسئلة مزدهمة متراكمة تعكر صفو سلامه النفسي حتى أنه يشعر أن كيانه ووجوده كله معلق بالإجابة عليها: كيف دخل أبواه إلى أورشليم؟ لماذا علمته أمه التخاطر الذهني؟ لماذا قامت بتهريبه من أسفل البوابة يوم الزلزال وأوصته بالحرية؟ أين جيرانه المنحون؟ هل يا ترى لا زالوا على قيد

الحياة أم اختفوا في ظروف غامضة كما اختفى والداه؟ ما الذي يغضب  
أورشليم؟ بل ما الذي أغضبها يوم هروبه منها؟... أسئلة.. أسئلة..  
كلها بدون إجابات حتى كاد يجن...

وبناء على ذلك، قرر ألا يكتفي بالتفكير، وإنما قرر التحرك.. قرر السير  
تجاه أورشليم.. قرر العودة إلى مكان ميلاده وطفولته، عله يجد هناك ما  
يطفى نيران أسئلته.

وفي صباح يوم الراحة الأول، غادر غرفته بعد الفجر بقليل بعد ليلة  
سهاد لم يذق فيها للنوم طعمًا، وغادر القصر في هدوء تام، وأسرع  
الخُطى في اتجاه أورشليم. كان الطريق إليها من قصرهم مهجورًا غير  
مطروق، فقد كانت تقع في المنطقة الجنوبية منه على مسافة كبيرة لا  
تقل بأية حال عن عشرة كيلومترات، لكن الإصرار الذي ورثه نجم  
حتمًا عن والدته؛ لم يشعره بالتعب وهو يسير بخطوات ثابتة في منطقة  
صحراوية قاحلة وعرة وغير آمنة تحيط بمدينة مهجورة منذ مئات السنين  
يُقال عنها إنها مسكونة بالجن!.

وبعد وقت ليس بالقصير، توقف نجم فجأة لبرهة، توقف عندما ظهرت  
في الأفق أمام عينيه الأسوار العالية لأورشليم، توقف وقد ازدادت  
ضربات قلبه حتى باتت مسموعة لأذنيه في هذا الفضاء الموحش الذي  
يحيط به، وبدأت الشمس تعلو في كبد السماء، فبدأ جبينه يقطر عرقًا،  
وبدأ يشعر بخيوط العرق تتسابق على جسده حتى أنه أحسَّ أنه تحول إلى

بحر من العرق يسير على قدمين، لكنه لم يعبأ بأي شيء، فقد صوّب  
بصره تجاه الأسوار وكأنها هدفه الأول والأخير في هذه الحياة.

وكان نجم طوال الأيام السابقة وبعد انتهاء وقت العمل، يبحث في  
مكتبة جده الكبيرة الموجودة في القصر عن تاريخ أورشليم، وقد قرأ في  
رحلة بحثه هذه كمًّا لا يُصدّق من الأساطير والحكايات، واطلع على  
تاريخ كامل يتوزع بين الحقيقة والخيال والافتراضات، والمدهش أنه  
وجد أن أحدث الكتب التي تروي تاريخ هذه المدينة يؤكد أن سبب  
خرابها وخلوها من ساكنيها مجهول تمامًا، مجهول للأثريين وللمؤرخين  
معًا، خاصة وأن المعروف أن تاريخها القديم جدًّا مصدره الوحيد هو  
كتابات مَنْ عاصرها من المؤرخين والكتّاب، وهو زمنٌ سابقٌ على خرابها  
بوقتٍ طويل، لكن، لم يجد نجم أي مصدر ولا أي كتاب يتحدث عن  
توقيت هذا الخراب ولا كيفيته ولا أسباب حدوثه، وبالتالي لا يعرف  
أحد كيف تحولت مدينة كانت يومًا ما تموج بالحياة والبشر والصراعات  
إلى مدينة مسكونة بالجن وأبوابها صدئة وموصدة !.

لقد استرجع نجم كل ما قرأ عن أورشليم في اللحظة التي شاهد فيها  
أسوارها عن بُعد، ومن ثمّ أسرع الخطى غير عابئ بقيظ الصحراء ولا  
بوعورة الطريق، فقد تراصت كل الكلمات أمام عينيه وكأنه يستعيدها  
ويقرأها من جديد، على خلفية أسوار أورشليم التي أخذت تكبر وتعلو  
كلما ازداد اقترابه منها.

والآن... وصل نجم في مواجهة أسوار أورشليم، المدينة السماوية، التي كانت يوماً ما أرضاً للصراع بين من يعبدون الإله الواحد لكن بطرق مختلفة، وكان مما أثار فضول نجم وهو يقرأ هذا التاريخ المظمور أن يكون هناك أصلاً صراع بين الناس لاختلاف معتقداتهم رغم اتفاقهم على وحدانية الإله، ففي عصره يدين الناس بما يشاءون، ويغير كل إنسان دينه إذا رغب وفقاً لإرادته دون أن تمتد إليه يدٌ بسوء، بل دون أن يجذب اهتمام أحد لأن هذه حرية شخصية، لقد وُلد نجم وترى في عصره أكد على الحركة الدائرية للتاريخ، فمثلما كان الناس قبل الأديان السماوية لا يتقاتلون أبداً بسبب اختلاف العقيدة، أصبحوا الآن وبعد آلاف السنين من الأديان السماوية لا يتقاتلون أبداً أيضاً بالسبب ذاته، بل أصبح أهل زمانه يتعجبون أيما تعجب من كل هذه الأنهار من الدماء التي أراقها البشر بين بعضهم البعض في أزمنة سابقة بسبب اختلاف المذاهب داخل الدين الواحد! أو بسبب اختلاف المعتقدات بين الأديان التي تتفق على عبادة الإله الواحد!.

دارت كل هذه الأفكار في رأس نجم وهو يتطلع لاهناً تعباً وانفعالاً إلى أسوار أورشليم العالية، وظلَّ على هذا الحال من التأمل زمناً لا يدرك أكان قصيراً أو طويلاً، لكنه اقترب فيما بعد من البوابة الرئيسية الهائلة في حجمها حيث ظهر بجوارها وكأنه نقطة غامقة فوق الرمال الصفراء، وظلَّ يتأمل ويتمعن فيها، ثم اقترب من البوابة أكثر وأكثر... وعندها

اتسعت عيناه في دهشة وحبيرة في آنٍ واحد، فقد وجد الجزء الأسفل من البوابة التي تقع على يسار الداخل إلى المدينة - وبالتالي على يمين الخارج منها - وكأنه مقسوم ومزحزح قليلاً إلى أعلى بحيث يبدو خارج الإطار العام للبوابة، فسقط على ركبتيه، واسترجع أحداث يوم خروجه من أورشليم، يوم دفعته أمه بكلتي يديها لكي يخرج من... هنا، من هذه الفتحة الموجودة أسفل البوابة والتي يبدو أن إعادتها كاملة داخل إطار البوابة قد تعذرت نتيجة لطبقات الصدأ المتراكمة.. مدَّ نجم يده ببطء شديد وحذر أشد إلى المقطع المقسوم المزحزح، وحاول رفعه بهدوء متسلل، حاول مرة.. ومرة.. ومرة، لكن الصدأ الشديد حال دون إتمام هذه العملية بنجاح. فحاول مجدداً، بشجاعة أكبر وعزم أشد وقوة أعتى وتصميم أصلب، فما وجد إلا عناداً، فلم يتزحزح المقطع إلا بضعة ميلليمترات مرتفعاً عن الأرض؛ مما لا يسمح إلا بعبور إحدى حشرات الصحراء، لكنه حاول مجدداً بعناد لا يستسلم، ثم... أحسَّ فجأة باهتزازٍ شديد... ثم إذا بالبوابة وكأنها قد تجسمت أو تجسدت لا يعرف، لكنه رأى وكان يداً هائلة تلكمه في صدره، فأطاحت به بعيداً لعشرات الأمتار، ثم اختفت، وعاد السكون يلف المنطقة، فقام نجم من سقطته تلك فزعاً وهو يشعر وكأن عظام صدره قد تحطمت كلها من فعل اللكمة الهائلة، وأن عظام ظهره قد تمشمت بفعل السقطة العنيفة على الأرض، فما إن استطاع الوقوف على قدميه حتى دار برشاقة حول

نفسه وأخذ يعدو مبتعدًا والرعب يملأه، وكان يرتعد من قمة رأسه إلى  
أخص قدميه.

وصل نجم إلى باب حديقة القصر وهو يترنح، فرآه الخدم وأسرعوا  
إليه، ونبهه أحدهم إلى أن أباه وجدته كانا يبحثان عنه قلقين على غيابه  
المفاجئ، فلم يستطع الرد على أحد، بل لم يسمع أحدًا بوضوح، فقد  
أظلمت الدنيا أمام عينيه، و... سقط مغشيًا عليه.

– إنه بخير، لا داعي للقلق، إنها ضربة شمس.

وجّه الطبيب هذه العبارة إلى يوسف والسيد بحير وهو يطمئنهما بهدوء مبتسم بعد أن رأى حالتها من الجرع والهلح على نجم، قرة العين وزهرة القصر، حتى أن السيد بحير كان دامع العينين ملتاع الفؤاد وهو يتابع كشف الطبيب على حبة قلبه الذي أحبه ربما أكثر مما أحب ابنه يوسف..

أردف الطبيب :

– تلزمه راحة تامة لثلاثة أيام على الأقل، ولا تنسوا السوائل، لقد فقد جسده الكثير منها، لا تقلقوا، بمتابعة العلاج والراحة سوف يقوم سليماً معافى إن شاء الله... لكنني أصدقكما القول، لا أعرف ما سرُّ هذه الكدمة الزرقاء الكبيرة الموجودة على صدره، ولا أعرف ما علاقتها بضربة الشمس، كما أن ظهره به كدمات وسحجات أيضاً، عموماً لقد كتبت له علاجاً لكل هذه الإصابات أيضاً، أرجو أن تتم متابعة العلاج بانتظام، كان يمكن لقوة هذه الضربة في صدره – فيما أرى – أن تسحق ضلوعه فيموت فوراً، لقد كُتِبَ له عُمرٌ جديدٌ اليوم.

غادر الطبيب، ولبت كل من يوسف والسيد بحير سهرانين بجوار نجم، وعندما فتح نجم عينيه في صباح اليوم التالي، وجد يوسف مستيقظاً إلى جواره يتطلع إليه بقلق بالغ ممزوج باللهفة والحنان، ورأى على مقربة من سريره السيد بحير وقد أخذته غفوة على مقعد قريب، وعندما حاول نجم القيام من مرقده نتجت عنه آهة ألم قوية أيقظت جده فرغاً وجعلته يهرع إليه، وربت كل من أبوه وجده عليه وأخبراه أنه ممنوع من مغادرة الفراش، وقد سمعهما وكأنه لا يزال يحلم، كما أن الآلام المبرحة التي كان لا يزال يشعر بها في كل خلية من خلايا جسده كانت تعجزه نهائيًا عن الحركة وعن الكلام بل وحتى عن التخاطر... فاستسلم للنوم.

- لا بد أن أعرف منه ماذا حدث يا أبي، إن عقلي يكاد ينفجر، من الذي يمكن أن يؤديه بهذا الشكل ولماذا؟ ليس لنا أعداء على وجه الإطلاق، كما أننا نعيش معزولين وفي هدوء تام مع عمالنا وخدمنا، هل يمكن أن يكون أحد العمال أو أحد الخدم تبعه وفعل به ذلك؟

غمغم يوسف بهذه الكلمات لأبيه وهما يجلسان في حجرة نجم ويتطلعان إليه من وقت إلى آخر ليتأكدان من انتظام تنفسه.. فردَّ عليه السيد بحير قائلاً:

- لا تسيئ الظن يا بني، عمالنا وخدمنا لا يمكن أن يضمروا لنا أي شر، إن أحدث فرد فيهم خدمنا على الأقل خمس سنوات، لم نرَ أبدًا من أحد منهم إلا كل الخير. الأمر لا يتعلق بأفراد يا يوسف.

- تتحدث وكأنك تعرف ما حدث يا أبي.

هزَّ العجوز رأسه في أسي، ثم قال :

- إنها أكيد أو شليم يا يوسف.

اعتقد يوسف أن أباه قد كبر وأصابه الحرف، وشعر أن أعصابه لا تتحمل مثل هذه الافتراضات التي لا يمكن أن يقبلها العقل السليم، فنظر إلى أبيه باعتراض شديد، ثم آثر الصمت لكيلا يتفوه بما قد يغضب الشيخ أو يجرحه، لكن الأب تابع غير عابئٍ باعتراض ابنه :

- يا يوسف صدقني، لقد قرأ نجم كل كتاب في مكتبتني يتحدث عن أو شليم وتاريخها وأساطيرها، كل كتاب بالمعنى الحرفي للكلمة، لقد كان يعمل معك دوماً وقلبه مع أو شليم، لقد صارحني أكثر من مرة أنه يحن لأيامه فيها وأنه يتمنى لو يعود ليعرف مصير جيرانه ويرى مدينته التي ولد وتربى فيها لأربع سنوات.

أثار حديث الجد انتباه يوسف، فتساءل وهو يفرك كفيه انفعالاً :

- أبعد كل هذه السنوات السعيدة الهادئة معنا يبحث عن ماضٍ بعيد في مدينة مهجورة منذ مئات السنين؟ إن نجماً كان دوماً أعقل وأذكى من ذلك بكثير يا أبي... ما الذي حدث له لكي يتبدل حاله هكذا؟ وأين كنت أنا؟ لماذا لم تنبهني لهذا التغير الذي طرأ عليه يا أبي؟ لماذا؟

طأطأ السيد بحجر رأسه وقد شعر أنه قد قصر بالفعل في حماية نجم عندما لم يُعر كلامه عن أورشليم الاهتمام الكافي، كما أنه لم يخبر يوسف أباه الذي يجيد التفاهم معه بشكل كامل عما يدور في ذهن ابنه المراهق الذي يخطو بالكاد نحو السنة العشرين من عمره. شعر السيد بحجر بالحرج الشديد، وبالخزن العميق، ولم تلبث أن انحدرت دمعتان من عينيه، فلم يأبه يوسف بذلك للمرة الأولى في حياته، فقد كان عقله يموج بالأسئلة التي يريد طرحها على ابنه حول حقيقة ما حدث له بالضبط، كما أن قلبه كان جزعاً هلعاً من احتمال فقدان زهرة عمره هذا الذي أحبه ورعاه بشكل أفضل ربما مما لو كان ولدًا من صلبه.

بعد يومين من العلاج والراحة، بدأت بشائر تحسن حالة نجم، لكنه كان يغادر الفراش فقط للاستحمام وقضاء الحاجة، فقد كانت إصابات صدره وظهره لا تزال تؤلمه...

وفي المساء، دخل عليه أبوه يوسف وأغلق الباب، وجلس أمامه وسأله بشكل مباشر في لهفة لا تخلو من الصرامة :

- احكي لي بالتفصيل ماذا حدث لك يا نجم، ولا تنقص حتى رمشة عين من روايتك.

وأمام لهجة أبيه الصارمة التي يعرفها نجم جيداً، ويعرف أنها سيف بتار لا يُرد، حكى له كل شيء بمنتهى الصدق، بدءاً من التفكير والهواجس

ومرورًا بالذهاب والإصابة وانتهاءً بالعودة. وكان يوسف طوال الوقت يستمع إلى نجم بملامح جامدة لا يبدو عليها أي انفعال، كما أنه لم يقاطعه ولا حتى بإيماءة، تركه يسترسل حتى انتهى تمامًا، ولأن نجم يفهم أباه جيدًا، فقد بادره قائلاً بعد أن انتهى من السرد التفصيلي لقصته :

- أعرف يا أبي أنك غاضب مني، وذلك لأنني لم أعود أبدًا أن أخفي عليك أي أمر، وأن ما أخفيت قد تسبب بالأذى لي ولك ولجدي، لكن صدقني يا أبي كانت رغبتني في المعرفة تفوق كل رغبة أخرى، كنت أريد أن أعرف...

فقام الأب وعقد كفيه خلف ظهره مفكرًا، ثم التفت موجّهًا حديثه إلى نجم وقد خفت نبرة الصرامة في صوته :

- ولكنك يا نجم بهذا الشكل قد أزدت رغبتك في المعرفة اشتعالًا، إن زيارتك لأورشليم وما حدث لك أمام أبواها سوف يدفعك لأن تحاول مجددًا الذهاب إلى هناك.

طأطأ نجم رأسه، فاقترب منه أبوه بحنان دافق، ورفع رأسه إليه وهو يلمس ذقنه ويهمس له :

- إنني أعرفك أكثر مما تعرف نفسك يا نجم، يبدو أنك ورثت هذا العناد في الأغلب عن والدتك رحمها الله، لكنك لو أشركتني منذ البداية لفكرنا معًا ولحاولنا إيجاد وسيلة نساعدك بها على المعرفة دون أن تؤذي نفسك.

فتهلل وجه نجم، وصاح وسط آلام صدره :

– هل أنت جاد يا أبي؟ هل ستساعدني في معرفة ما أريد؟

ابتسم يوسف وهو يربت على خد ابنه برقة :

– بالطبع يا نجم، وهل تظن رغبتك في معرفة حقيقة ماضيك هي رغبة تواتيك وحدك؟ لقد حاولنا – أبي وأنا – لمرات كثيرة أن نعرف أي شيء عنك منذ اللحظة الأولى التي وجدناك فيها، لكن حادثة عمرك يوم عشنا عليك حالت دون إلماننا بأية تفاصيل، وقد ألهتنا حياة المشاعر الجميلة التي وهبنا إياها وجودك بيننا حتى أننا تناسينا أو نسينا أن نباهتك الفطرية لن نسمح أبداً بدفن ماضيك وأنت حتماً ستقوم يوماً بجثاً عن أصلك.

اغرورقت عينا نجم بدموع الامتنان، وعانق أباه، الذي طلب منه أن يرتاح الآن، ووعد أنه عندما يتعافى فإنهما سيخططان معاً للبحث وراء الحقيقة، حقيقة الماضي المستتر وراء جدران أورشليم.

– كلا يا أبي، لقد آمنت بالفعل أن هذا حقه.

ردَّ يوسف على أبيه بهذه العبارة عندما تساءل السيد بحير عما إذا كان يوسف قد تصرف بهذا الشكل لترويض نجم وإسكاته، وضمناً لكي لا يحاول الشاب تكرار فعلته هذه ثانية فيكون فيها هلاكه، وعندما سمع رد يوسف القاطع هذا، ردَّ عليه قائلاً :

– ولكن يا بني... أعني... هذه مسألة خطيرة جدًّا، أنت تتحدث عن أمر يجهل الناس عنه أكثر مما يعرفون بكثير، لقد فشل أفضل العلماء في معرفة ما تتحدث عنه يا يوسف، اسمع كلامي يا بني، أورشليم مسكونة بالجن، وسوف تملكان معًا لو فكرتما في الذهاب إليها ومحاولة اقتحامها.

– ومن قال إننا سنفعل ذلك يا أبي؟

– إذن، ماذا ستفعلان؟

فابتسم يوسف بغموض، ثم أردف :

– سننتظر يا أبي ونصبر... والصبر مفتاح الفرج.

وعادت عجلة العمل للدوران في ورشة الحلبي، بإشراف يوسف وحده، فقد كان نجم لا يزال طريح الفراش، وكان السيد بحير يجالسه طوال اليوم تقريباً، وعلى الرغم من انشغال يوسف الشديد إلا أن عقله لم

يكف عن التفكير في هذه المسألة المعقدة... مسألة اورشليم وتعلق ابنه بها بحثاً عن ماضيه.

وكانت قد ترامت إلى مسمع يوسف في اليومين السابقين - أثناء إصابة نجم - أقاويل من الخدم حول أصوات صخب عالية بدأت تصدر من ناحية المدينة في أوقات متفرقة من النهار والليل، وأن هذا أمرٌ غير مألوف حيث كانت المدينة ساكنة ومهجورة خاصة بعد زلزالها الأخير الذي حدث منذ خمسة عشر عامًا، يوم العثور على نجم.

ويعد أن استمع يوسف إلى قصة ابنه معها، أحس أنه ربما يكون بين هذه الرواية وما رواه له الخدم علاقة ما، وهو ما يفسر قوله لأبيه بأنهم سينتظرون، فقد بدا له أن أية تطورات قادمة فيما يخص بهذه المدينة سوف يتم في الأغلب بدءاً من ناحيتها هي وليس من ناحيتهم هم.

مرّت ثلاثة أسابيع، استرد فيهم نجم عافيته بالكامل، ولم يتبق من إصابته إلا بضعة آثار بسيطة على صدره وظهره، وعاد إلى العمل مع أبيه وقد فقد الكثير من وزنه ومن رونقه أيضاً، فقد ملكت عليه رغبته في كشف ستر ماضيه كل حياته، ولم يعد بإمكانه إلا التشبث بما وعده به أبوه. لكن سرت إلى أسماعه أيضاً من الخدم - مثلما سرى إلى أسماع أبيه من قبله - حالة الصخب التي أصبحت شبه دائمة والصادرة من ناحية اورشليم، حتى أنها تصل بسهولة إلى أسماع من يسترق السمع وهو واقف خارج منطقة قصر السيد بحير، وصار الأمر مدعاة لتعليقات

الخدم وعمال الورشة أيضاً، بل أصبحت مدعاة لقلقهم وخوفهم خصوصاً في الليل حيث يساعد السكون على تضخيم الصوت، وساعد شيوع الأمر بهذا الشكل على اضطراب نيران الفضول عند نجم الذي أصبحت رغبته الآن في معرفة ماضيه مضاعفة عشرات المرات.

حتى جاء يوم، دخل أبوه عليه الورشة وهو جالس على درجة من الشرود بين العمال، وكان يبدو على الأب سيماء الاضطراب، فخاطر نجم بعقله :

– نجم، لقد بدأ الزحف نحو أورشليم !

اتسعت عينا نجم في مزيج من الدهشة والحيرة، وخاطر أباه :

– لا أفهم يا أبي ! ومن ذا الذي يزحف نحو أورشليم؟ ولماذا؟

تنهد الأب، ثم خاطره :

– أمير مملكة الصف المجاورة لنا أعدَّ جيشاً كبيراً، وهو في طريقه الآن إلى أورشليم، وسوف يمر حتماً من أمام قصرنا.

– أكرر يا أبي، لماذا يفعل ذلك؟

– إنه رجل واسع المطامع، يبدو أن أحدهم أقتعه أنه سيجد كنوزاً في هذه المدينة المهجورة، فقرّر الزحف إليها، كما أن أصوات الصخب التي أصبحت لا تنقطع ليل نهار قد أورثته فضولاً فقرّر قطع الشك باليقين والزحف نحوها، إنه سيصل إلى أسوارها حتماً قبل أن تتوسط

الشمس كبد السماء، وهذا معناه أنه ربما يكون قد دخلها ودكّها  
قبل حلول المساء.

اتسعت عينا نجم رعبا، وهتف بصوت عالٍ :  
- دكّها؟ ولماذا يدكّها؟

جذبه الأب من ذراعه وخاطره :

- يا نجم، إنني أخاطرك حتى لا أفرع العمال، ماذا أصاب ذكاءك؟

لم يعر نجم اهتماما وأعاد السؤال على والده تخاطراً، فأجابه الأب :

- إنه يريد أن يؤسس مدينة جديدة يوسع بها مملكته، وبالتأكيد ستكون  
مملكة الجوار التي نقطنها جزءاً من المملكة التوسعية المنتظرة.

لملم نجم حاجياته ثم جذب أباه منذ ذراعه دافعاً إياه للخروج من  
الورشة، وهامساً له في أذنه :

- لا بد أن نكون في رفقة هذا الجيش يا أبي.

اتسعت عينا يوسف في ذعر، ثم أردف هامساً :

- ماذا تقول يا بني؟ هل جننت؟ نحن أناس مسالمون، أي جيش هذا  
الذي تريدنا أن نرافقه؟

- أرجوك يا أبي، هذه فرصتي الأولى والأخيرة لأرى المدينة التي ولدت

وتربيت لأربع سنوات فيها، والتي فقدت فيها أسرتي، لو لم أرها اليوم

فلن أراها أبداً، بعد أن يكون الأمير قد سوّأها بمساعدة جيشه

بالأرض تمهيداً لبناء مدينته الجديدة.

- ولكن يا بني... ماذا سيفعل اثنان مثلنا من خارج العسكر بين جحافل هذا الجيش؟
- يا أبي... الأمير يعرفك، ألم تصنع له حلياً من قبل؟ أرسل له رسولاً من الخدم يستأذنه في أن نرافق جيشه إلى أورشليم.
- وما الذي سيدعوه إلى الموافقة على طلبي؟
- وما الذي سيدعوه للرفض يا أبي؟
- سيدعوه للرفض أننا لا علاقة لنا بالأمر، فلا ناقة لنا ولا جمل في حربته هذه، بأية صفة سيقبلنا زواراً بين صفوف جيشه؟
- طأطأ نجم برأسه وقد هزمته حجة والده لفرط بساطتها ومنطقيتها، وحثَّ جبهته مفكراً، ثم رفع رأسه فجأة قائلاً لأبيه :
- أبي، يمكننا أن نتبع الجيش دون أن يشعروا بنا، أعني في غفلة من العسكر.
- وماذا سيحدث عندما يكتشفون أمرنا؟
- لن يحدث أي شيء، نحن غير مسلحين، ولنا سمعنا الطيبة التي يعرفها الأمير نفسه إذا ما رفعوا أمرنا إليه، سيتم تفسير الأمر كله على أنه فضول، خاصة أنهم سيمرون من أمام قصرنا، فسيصبح الفضول أمراً طبيعياً.
- سكت الأب مفكراً بعد أن وجد كلام الابن بدوره مقنعاً أيضاً لفرط بساطته ومنطقيته، فقال بعد برهة من الصمت :

- حسنًا يا بني.. إنني.. أوافق.

عانقه نجم عناقًا حارًا مقبلاً إياه وداعيًا له بالصحة وطول العمر...

فربت أبوه على ظهره مغمغمًا :

- ولكن لا تخبر جدك، حتى لا يفزع.

هزَّ نجم رأسه موافقًا وعانق أباه مرة أخرى.

وبالفعل، بمجرد مرور هذا الجيش العرموم الذي جهزه أمير مملكة الصف لاقتحام أورشليم، كان يوسف ونجم قد تسلحا بأغطية واقية لوجوههم ورؤوسهم من قيظ الشمس وغبار الصحراء، واختارا لملايسهما لون رمال الصحراء ليسهل اختفاؤهما إذا ما انبطحا أرضًا، كما تزودا كذلك بمخزون من المياه يكفي رحلتي الذهاب والعودة، وانطلقا في هدوء تام وسرية كاملة في إثر الجيش المتجه إلى أورشليم.

تبع كل من يوسف ونجم الجيش بحذر شديد، وحافظا دومًا على مسافة كافية بينهما وبين مؤخرته تجعل من الصعب أن يلمحهما أحد، وعندما ظهرت أسوار أورشليم في الأفق بدا لهما أن أصوات الصخب القادمة من خلف أسوارها وكأنها معارك طاحنة تدور رحاها بين قوى خارقة، ولم يأبه الجيش، بل واصل تقدمه، في حين امتلأ كل من يوسف ونجم بالتوتر الشديد نتيجة لعلو هذه الأصوات، وكان يهيبًا لنجم أنه يريد أن يخترق هذه الأسوار بعينه ليعرف ما الذي يدور وراءها ويتسبب في

هذه الضجة الهائلة. والأدهى، أنهما كلما اقتربا أكثر تبدى لهما غبار كثيف يتصاعد من وراء الأسوار، فأعطى الغبار مع الضجة مزيجاً يعطي الإحساس بالحرب والزلزال في وقتٍ واحد.

وعندما أصبح الجيش تماماً في مواجهة أبواب أورشليم، بدأ يتعامل مع الأبواب الضخمة بأحدث معداته، في حين ظلّ يوسف ونجم يرقبان الموقف وحرارة الفضول تبدو أضعاف حرارة الشمس التي تكاد تصنع ثقباً في رؤوسهما بأشعتها الحامية وحرارتها اللاهية. لكنهما لم يهتما، وظلا يحمقان في أسوار أورشليم وقد استترا بتلّ قريب متوسط الارتفاع يجعل أبواب أورشليم في محيط رؤيتهما تماماً.

وفي غضون دقائق، نجح الجيش في تدمير أبواب المدينة المهجورة، هذه الأبواب التي لم يفلح نجم منذ أسابيع في زحزحة الجانب الأسفل منها بسبب الصدا المتراكم، انهارت تماماً بعد أن أزالها مقدمة الجيش وأزالت معها جزءاً من السور، لكن ما إن انكشف قطاع من المدينة أمام أعين الجميع، حتى كانت مفاجأة.. مفاجأة أكثر بكثير من... مذهلة...

— يا إلهي! أين ذهبت المدينة؟

هتف قائد الجيش بهذه العبارة التي لم يسمعها يوسف ولا نجم ولكنها رددًا ما يماثلها تماماً، فقد كشفت البوابة المخلوعة والجزء المتهدم من

السور عن صحراء قاحلة، وكأن الصحراء خلف الأسوار هي امتداد للصحراء الموجودة أمامها.

تقدم فيلق من الجيش بأمر القائد عابراً الأسوار من الثغرة التي أحدثها الهدم، وظلوا يسيرون على مرأى من باقي قطاعات الجيش وعلى مرأى من يوسف ونجم، ومع ذلك لم يكن هناك أي شيء سوى امتداد صحراوي على مرمى البصر. فلا أثر لمخلوق ولا لجماد ولا حتى لطوبة واحدة، وكأن أورشليم كانت وهماً، أو كأن الأسوار العالية والبوابات الموصدة كانت أكبر خدعة في التاريخ.

ولم يتمالك نجم نفسه، فالتحدرت دموعه غزيرة على خديه وقد شعر أن صدره سيشتعل مُخرجاً ألسنة حارقة من نيران الكمد والحسرة والحزن واليأس التي تكاد تأكله، وشعر للمرة الأولى حقاً أنه يتيم وأنه يريد أن يبكي الآن فقداه لأبيه وأمه وأخته ويريد أن ينعي جيرانه المنحنيين ويريد أن يتلقى العزاء في كل هؤلاء جميعاً، وتعالته فنهته، فانتبه يوسف الذي كان سارحاً متأملاً الجيش وهو يتدفق إلى الأرض الخاوية، فطأ رأسه وهو يشعر بصلوعه تنطبق على قلبه من فرط حزنه على قرّة عينه هذا، فقد كان يعرفه عن ظهر قلب، ولم يكن نجم بالتالي في حاجة إلى أن يشرح له لماذا يبكي ولا بماذا يشعر، واكتفى يوسف باحتواء رأس نجم في صدره، وتعالى بكاء نجم وهو يدفن رأسه في صدر أبيه ويتشبث به

وكأنه الأمل الأخير، فما كان من يوسف إلا أن ربت على ظهره بحنان  
دافق مهدئا إياه، ثم همس له في أذنه قائلاً :

– الحمد لله إنك بخير يا بني، رحم الله والدتك، وهبتك الحياة من رحم  
إيمانها بالحرية.



العودة

obeyikan.com

أنا أورشليم... أورشليم... أورشليم... أورشليم... إيلياء... إيلياء... إيلياء كايبتولينا...  
بيت هاميقداش... القدس... بيت المقدس... المدينة السماوية...  
الدرب إلى السماء... مدينة الصلاة... بهية المساكن... زهرة المدائن...  
مدينة الزيتون... مدينة الإله الحي...  
مدينة السلام التي لم تعرف أبداً السلام...

قررت الرحيل... فقد أردت أن يلقوا سلاماً فشهروا في وجهي سيفاً...  
هؤلاء المنحون الضعفاء صنعوا الشر الذي أردت حمايتهم منه...  
وجلبوا المتاعب التي أردت أن أريحهم منها... تمردوا عليّ كما فعل  
البشر من قبلهم... فبدأت أخيفهم... تبتلعهم أرضي وتهد فوق  
رؤوسهم حوائطي... فلم يتعظوا... فأبدتهم جميعاً... ولمت جنباتي...  
وطويت شوارعهم ومسكني... طويت آثارهم وآثار من كانوا قبلهم...  
ورحلت... لن أسكن أرضاً بعد اليوم... فعلى الأرض سيتنازعون  
ويتقاتلون... كفاني نزاعاً وقتالاً... من الآن سأسكن النفوس... سأصير  
روحاً تتوزع بين الناس... لتقضي على الخلاف والاختلاف... ليصبح  
الجميع متشابهين... فيعم السلام... من مدينة السلام التي تتوق إلى  
السلام... ولم تعرفه حتى الآن... رغم كل المحاولات.

( ١ )

- منذ مائة عام كاملة ونحن نقاسي من تبعات هذه الحرب.
- هتفت عالمة الفلسفة المعروفة "دُرّة" بهذه العبارة في أسي يقطر حزنًا وألمًا وهي تتحدث إلى تلاميذها في كلية تعليم الفلسفة الشهيرة بمملكة الصف، فانبرت إحدى تلميذاتها وتدعى سماء وكانت أنبغ تلامذتها جميعًا:
- وماذا بأيدينا أن نفعل يا أستاذتنا؟ لقد فنى آباؤنا وأجدادنا في هذه الحرب الشعواء، إن وجودنا نحن على قيد الحياة معجزة.
- هزّت الأستاذة الجليلة رأسها، وبعد فترة من الصمت قالت :
- كلا يا سماء، لا يجب أن نرتكن إلى ما تقولين، فمادامت الروح لا تزال تدب في أجسادنا فيجب أن نفعل شيئًا لإيقاف هذا الجنون المستعر.
- لقد فشلت كافة المساعي والمحاولات لإيقاف نزيف الدم يا أستاذتنا، فشلت عبر مائة عام كاملة، لقد فنت مناطق بأكملها في مملكة الصف وفي الممالك الخيطة بها أيضًا، وليس بيننا الآن من لم يفقد غالبًا في أسرته، إننا نقاسي الأهوال يوميًا حتى نستطيع أن نأتي إلى هنا لتتعلم، والميزة الوحيدة لهذه الكلية التي أسستها يا أستاذتنا هي كونها على أطراف مناطق العمران، فهي وإن كان الوصول إليها صعبًا إلا أنه عند الوصول إليها والولوج في ردهاتها نشعر بالأمان والاطمئنان.

ابتسمت دُرَّة للمرة الأولى منذ بداية الحديث، فقد مرَّت كالبرق الخاطف في رأسها - أثناء استماعها لتلميذتها النجيبة - ذكريات يتمها وترملها المبكرين بسبب هذه الحرب، فقد فقدت أباهما وهي في سن العاشرة تقريباً ثم فقدت زوجها وهي في الخامسة والعشرين بعد زواج لم يدم أكثر من شهرين، ولم يرزقها الله منه بأطفال، فعاشت خمس عشرة عاما وقد كرسَتْ نفسها لخدمة العلم ولإنارة عقول الناس التي أظلمت إظلاما شديداً بعد أن ساد نفوسهم التعصب والغل والبغضاء ونسوا الحب والرحمة ولم يعد للعدل مكان بينهم، فجمعت كل ما ورثته من أموال من أبيها ومن زوجها وأسست بجزء كبير منه هذه الكلية للدراسة الحرة على أطراف المملكة، وجعلتها مخصصة لتدريس الفلسفة التي رأت أنها ربما تكون النبراس الوحيد الذي يساعد الناس على فهم أنفسهم وفهم الدنيا من حولهم وعلى التحلي بالحكمة، وأخذت على نفسها عهدا بإعداد جيل متسامح من الشباب يكره العنف ويستطيع أن يللمم أطراف هذه المملكة التي تمزقت وانفرط عقدها بفعل ما يطلقون عليه "لعنة أورشليم" بعد أن ترسخ عبر مائة عام اعتقاد بأن اختفاء مدينة أورشليم من على وجه الأرض قد أصاب النفوس بلعنة جعلت الناس في كل الأراضي المحيطة بها يتقاتلون.

مرَّ كل ذلك في لحظة، فرسم ابتسامة هادئة على وجهها الصبوح، ثم علقَتْ قائلة :

– لا بد من أن نبدأ بأنفسنا يا سماء، ولا تنسوا أن الكلية نجحت بالفعل وعن طريق الفكر وحده في إيقاف القتال في ثلاثة أحياء كاملة في المملكة، وهذه مجرد بداية، امنعوا ذويكم بالحكمة من الاشتراك في القتال.

فانبرى تلميذ آخر نجيب من تلامذتها يُدعى مَجْدًا قائلاً في لهجة حاول بكل ما فيه ألا تخرج ساخرة مريرة :

– تمنع من عن ماذا يا أستاذتنا؟ إن في المملكة أكثر من مائة حي... في المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي منذ شهرين حاولت أن أمنعه عن الخروج لقتل جارنا وقد شهر سلاحه وتجلت الكراهية في ملامحه، فما كان منه إلا أن صفعني على وجهي صفعاً أسقطني أرضاً وهو يصرخ في قائلاً : اغرب عن وجهي، أتريد أن تمنعني عن من يعايرني بعقيدتي ويريدني أن أعتنق عقيدته؟ فقمتم من الأرض وأنا أمسح خيطاً من الدم أحسست به يسيل من طرف فمي وقلت له : يا أبي، إننا جميعاً نعبد الإله الواحد، ألا يكفي هذا لنعيش معاً في سلام؟ فردّ علي بصوت يطفح بالبغضاء وبعيون تتقد شرّاً : كلا، لا بد أن أؤدبه وأجعله مثلي حتى نستطيع أن نعيش معاً، لن أعيش مع مختلف عني، بل لن أطيع. وغادرنا... للأبد، فلم نره من يومها وجاءتنا أخبار تؤكد مقتله !

وأهني كلامه بصعوبة ثم أجهش ببكاء عنيف. فريت دُرّة على كتفه مهذّنة، وانبرت تلميذتها كوكب لتقول :

– إننا نتجرع همم الجحيم يوميًا يا أستاذتنا، تعرفين أن أبي طردني من المنزل عندما عرف أنني التحقت بالدراسة هنا، ولولا أنني أبيتُ معك في المبنى الملحق بهذا المبنى، لكنتُ أسكن اليوم قارعة الطريق، إن فكرة التسامح مع الآخر المختلف جلبت علينا الخراب وأرقتنا بالآلام والمتاعب، لكننا في الوقت ذاته لا نتقبل فكرة أن نتقاتل تحت مسمى أن كلاً منا يريد أن يجبر الآخر على اعتناق عقيدته لأن التشابه هو أفضل حل ومن ليس مثلي فهو عدوي، نحن نعتبر ذلك جنونًا مطبقًا، ومخالفًا لأبسط قواعد الحياة.

فطأطأت دُرّة رأسها مفكرة، فوقف تلميذها مُحب وعلق قائلاً :

– إن كل ما ندرسه منك في رحاب هذه الكلية لا نستطيع أن نطبق حرقًا منه خارجها، إننا نقاسي من ازدواجية تعذبنا وتجعل حياتنا خارج أسوار هذه الكلية مستحيلة.

فردّت دُرّة معاتبة :

– إن البشر في النهاية أخوة، وسوف تزول هذه العُمة مثلما زالت هموم وأحزان كثيرة عبر تاريخ الإنسانية الطويل.

فردّت سماء :

– قد يحدث ذلك في حياة أولادنا أو أحفادنا، لكن لا يبدو أنه من الممكن أن يحدث في حياتنا.

فردت ذرّة بنفس اللهجة المعاتبية :

– لم يكن اليأس أبداً جزءاً من المنهج الذي أعلمكم إياه.

– ماذا نفعل إذن؟

– نبدأ درسنا فوراً، اليوم سوف نناقش مفهوم الآخر من كافة جوانبه الاجتماعية والدينية والفلسفية والتاريخية، وبعد انتهاء النقاش سأطلب من كل منكم إعداد بحث متعلق بالموضوع.

أصدر الطلبة العشرون الذين لا يتخطى أكبرهم عامه الثاني والعشرين والجالسون في مواجهة أستاذكم الجليلة همهمات خفيضة تنبئ عن اعتراض وتدمير، وأمام ابتسامته أستاذكم التي تجمع في مزيج مدهش بين الود والصرامة استجابوا.. وبدأت الدرس.

(٢)

— إن أورشليم وهم تاريخي يا أستاذتنا، هكذا تعلمنا طوال عمرنا في مدارسنا وجامعاتنا.

انبرت كوكب بهذه العبارة وهي تعدُّ طعام العشاء مع دُرَّة في مطبخ المبنى الملحق بالكلية حيث تعيشان معًا منذ قبلت دُرَّة استضافة كوكب بعد أن طردها أبوها القائد عند علمه بالتحاقها بالدراسة الحرة في هذه الكلية ومنع عنها النقود، ولأنها يتيمة الأم وليس لديها سوى شقيق واحد ينضم إلى أبيه القائد كمقاتل، فقد فشلت في إقناعها بوجه نظرها، بل إن الرحمة كانت قد فنت من قلبيهما فلم يترددا في طردها دون أن يهتما حتى بمعرفة مصيرها، فلم تجد ملاذًا سوى في بيت أستاذتها الخبوبة التي تعيش بمفردها، وقد رحبت هذه الأخيرة أيما ترحيب باستضافة تلميذتها العزيزة، كما أن كوكب بدأت — بمساعدة أستاذتها أيضًا — في العمل كحائكة لتؤمن لنفسها دخلًا، وقد نجحت في الاستقرار في بيت دُرَّة على مدى عام كامل، ولم تسمع أية أخبار عن أبيها أو أخيها منذ ذلك الحين.

فكرت دُرَّة فيما قالته تلميذتها مليًا، ثم قالت :

— لا تجزمي بأي شيء في الحياة يا كوكب، فكل الأمور تحتمل أكثر من افتراض واحد.

- ولكن يا أستاذتنا هذا ما تقوله كتب التاريخ.
- التاريخ يكتبه في بعض الأحيان المنتصرون، وفي أحيانٍ أخرى المهزومون، وفي أحيانٍ ثالثة الموتورون، فليس كل ما يصلنا من التاريخ يكون مُسلماً به على إطلاقه، يجب أن نُعمل العقل في كل شيء.
- وماذا عن لعنة أورشليم التي تُعزى إليها الحرب الحالية؟
- ضحكت دُرّة وهي تضع الأطباق على المائدة الصغيرة التي تتوسط المطبخ :
- إنها التكنة التي نرر بها ضعف نفوسنا أمام تعصبنا يا عزيزتي.
- إذن، تعتقدين يا سيدتي أن أورشليم كانت مدينة حقيقية؟
- نعم.
- وما الذي يدعم رأيك يا أستاذتنا؟
- ردّت دُرّة بابتسامة غامضة وقد بدأت في تناول الطعام :
- أطلال أسوارها لا تزال قائمة حتى هذه اللحظة في قلب الصحراء المتاخمة لمملكة الجوار.
- يُقال إن هذه منطقة قديمة ومسكونة ولا علاقة لها بأورشليم.
- بل ينقسم الرأي حول كونها أطلال أسوار أورشليم أم مجرد منطقة قديمة ومهجورة.
- وبماذا تفسرين كل هذا الصراع حول العقائد والذي يدور منذ مائة عام كاملة ويتخذ من مملكة الصف مركزاً له؟

سرحت دُرَّةً ببصرها، فأحسَّت كوكب وكان أستاذها تسافر ببصيرتها  
إلى أعماق أعماق التاريخ.. ثم قالت دُرَّةً بمُدوء شديد :

- لو قرأت تاريخ الإنسانية جيداً، أو على الأقل... لو قرأت جوانب  
منه، فسوف تكتشفين أن البشر قد تفننوا في إراقة دماء بعضهم  
البعض أنهاراً لسنوات بل ولقرون ولأسباب تتنوع وفق طبيعة كل  
عصر، إنه أمرٌ متكرر يثبت التاريخ أنه ينتهي مهما طال الزمن، فقبل  
حرب المائة عام الحالية كانت هناك فترة امتدت لمئات الأعوام كانت  
الصراعات فيها تدور بعيدة تماماً عن مجال العقائد والأديان، والآن  
عاد الصراع على العقائد والأديان مرة أخرى، وسيأتي اليوم الذي  
سيعود فيه الصراع ليتحول إلى ميادين أخرى، وهكذا دواليك،  
فهكذا البشر يا عزيزتي، وهكذا تسير الحركة الدائرية للتاريخ.

- هذا يفسر يا أستاذتنا روحك المتفائلة رغم كل المصاعب.

- نعم يا كوكب... كما أن طريق العلم والاستنارة هو طريق التفاؤل  
المقرون بالعمل والاجهد، فلا يوجد في العلم طرق سهلة ولا مرصوفة.

بمجرد أن أنهت دُرَّةً آخر حروف كلماتها، سمعت طرفاً شديداً على باب  
البيت لدرجة أنها انتفضت بشدة مع كوكب التي امتقع وجهها وهي  
تفكر في إمكانية أن يكون أبوها وأخوها قد حضرا لقتلها، لكن دُرَّةً  
تمالكت جأشها بسرعة تدعو للإعجاب، وربتت على كتف كوكب  
لتهدئتها، ثم اتجهت منتصبية القامة إلى الباب، ونظرت في العين السحرية

فوجدتها مغطاة مع استمرار الطرق العنيف وأصوات تدل على وجود عدد كبير من الأفراد خلف الباب، فتراجعت وقد تبينت سوء نية الطارقين، وجذبت كوكب من يدها واتجهت إلى باب سحري يبدو وكأنه جزء من الحائط بجوار باب المطبخ الخلفي، ففتحته وولجت منه وهي تجر كوكب التي كانت في هذه اللحظة ترتعد خوفاً، ثم أغلقتها خلفها بإحكام تام، وقد أدى بهما هذا الباب إلى سرداب طويل لم يكن يعرف طريقه سوى دُرَّة، حتى كوكب نفسها بهتت من وجوده، لكنها تبعت أستاذتها في صمت، وبعد أن طال سيرهما في هذا السرداب خفتت الإضاءة فيها لدقائق، فتحت دُرَّة باباً آخر يؤدي إلى قاعة معيشة كاملة صغيرة لكن مريحة، تحتوي على أريكتين وثيرتين وصوان كبير وموقد صغير وثلاجة كبيرة بها أطعمة متنوعة مخزنة، وطاولة صغيرة وكرسيين، وبها فتحة قهوية، وملحق بها حمام، ويُرى على الجانب المقابل منها باب للخروج. أوصلت دُرَّة الباب الذي يفصل بين القاعة وبين السرداب، وارتقت على إحدى الأريكتين بينما ارتقت كوكب على الأخرى وهي لا تزال ترتعد، لكنها رغم ارتجافها وجدت نفسها تتساءل:

– أين نحن يا أستاذتنا؟

– في مقري السري الذي لا يعلم بوجوده سواي يا عزيزتي، والآن أصبحت تشاركينني هذا السر.

فأعادت كوكب السؤال وقد تملكته الدهشة المزوجة بالرعب وعدم الفهم :

– لماذا يا سيدتي؟ لماذا صنعت هذا المقر؟

أسندت ذرّة رأسها إلى ظهر الأريكة، وغمغمت :

– ها قد عرفت السبب يا كوكب، هذه هي الإجابة : أن يكون ملاذًا لنا عندما نتعرض للهجوم.

– هل هذا يعني أنك كنت تتوقعين الهجوم يا سيدتي؟

فابتسمت في غموض :

– بالطبع، إن التعصب الأعمى يفعل أكثر من ذلك، وأنا آخذ دائمًا العظة والعبرة من التاريخ يا عزيزتي، فأمرت المهندس الذي صمم لي الكلية والملحق بتصميم هذا المكان، وقد توفى بسكنة قلبية منذ عامين، كما توفى قبله في القتال البناؤون الثلاثة الذين نفذوه، رحم الله الجميع، وهكذا لم يبقَ خبره إلا معي، وكنت أحرص على تنظيفه بنفسي وعلى تأمين الثلاجة دومًا بالمواد الغذائية الطازجة تحسبًا لأي طارئ، كما نقلت إليه جزءًا من ملابسي واحتياجاتي، وها قد تحقق ما أعددت له العُدّة قبل سنوات.

استمعت كوكب إلى حديث أستاذتها الهادئ مذهولة، فهي تعيش معها منذ عام كامل ولم تكتشف قط أن أستاذتها تغيب للاعتناء بهذا المكان،

وأخذت تتأمل دُرَّةَ وكأنها تراها للمرة الأولى، فقد أيقنت أن هذه السيدة لديها المزيد من الأسرار التي لم تعرفها بعد، وأنها تُظهر أقل بكثير مما تُبطن. ومع مرور الوقت، اكتسبت كوكب شيئاً من الاطمئنان، خاصة أن الهدوء التام يحيط بهذا المكان المعزول تماماً تحت الأرض، وبدأت تستعيد هدوءها خاصة عندما هتفت دُرَّةَ في مرح :

– أعتقد أننا يجب أن نكمل عشاءنا !

نظرت إليها كوكب في توجس، ثم قالت بحذر :

– ألا تخشين يا سيدتي مما سيحدثه هؤلاء الجهولون من تدمير، أو مما سيسرقونه من بيتك؟

ضحكت دُرَّةَ ضحكة عالية، ثم اتجهت إلى دولاب جانبي صغير لم تلحظه كوكب إلا لحظة توجه دُرَّةَ ناحيته، ثم فتحت هذه الأخيرة أمام عيني كوكب الذاهلتين، وقالت بمنتهى الثقة :

– إن أهم ما أملك في هذه الحياة من أوراق شخصية ومستندات مهمة وسندات ملكية وأموال سائلة – بخلاف ما في البنوك والمصارف – ومجوهرات ثمينة محفوظة هنا يا عزيزتي، كما أن أوراقك الشخصية التي كنتُ قد طلبتها منك للاحتفاظ بها في مكان أمين يوم انتقلت للعيش معي موجودة هنا أيضاً، لن يجد المهاجمون الجهولون إلا فتاتاً، فليأخذوه، وليدمروا ما شاء لهم التدمير، فالتعصب لا يمكن أن يبني، إن التدمير صفةٌ أصيلةٌ فيه، لكنني أنا التي ستبني ما سيدمره، وإذا

استولوا على هذا المكان فسأبني مكانًا غيره في مكان آخر لنشر العلم  
والتسامح، وستكون نقطة انطلاقي هي هذه الحجرة.  
ظلت كوكب صامته في ذهول شديد، فاستطردت دُرَّة :  
- هلمي لتتناول طعامنا يا كوكب، فأماننا الكثير من الصبر والتخطيط  
حتى نبدأ من جديد.  
ولا يزال الدهول غير مفارق لكوكب..

( ٣ )

– لقد اختفيتا يا سماء، ألا تفهمين؟ أستاذتنا دُرَّة وكوكب اختفيتا تمامًا،  
لكأن الأرض قد انشقت وابتلعتهما.

هتف مجدٌ بهذه العبارة وهو يتحدث إلى كل من سماء ومُحب ومجموعة  
تلاميذ دُرَّة، فهتفت سماء وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

– ماذا يعني هذا يا مجد؟ هل أنت متأكد أن المقتحمين الجهوليين لم  
يقتلوهما أو يأسروهما؟

– لا أسرى في هذه الحرب يا سماء، فلا شيء سوى القتل، ولو كانتا قد  
قُتلتا كنا سنعرف حتمًا، على الأقل كنا سنرى جثتيهما.

فتساءل محب بمرارة :

– ومن ذا الذي يهاجم أستاذة مسالمة كأستاذتنا دُرَّة؟ ولماذا؟

فهتف مجدٌ بمرارة ساخرة :

– مسالمة؟! هذا سبب يكفي وحده لكي تُقتل يا محب، إنها تروِّج  
للتسامح وللقضاء على الخرافة وترفع من شأن العلم والعقل، إنها  
تتحدث عن قيم العدالة والإخاء وقبول الآخر مهما بلغ اختلافه،  
والناس في مملكة الصف يؤمنون بفكرة واحدة لا ثاني لها : من ليس  
مثلي فهو عدوي ! فكيف تتوقع أن يتقبلها الناس ويعتبرونها مسالمة؟

هل نسيت موقف أهاليينا من الالتحاق بالدراسة الحرة في كلية  
الفلسفة التي أنشأتم؟

هتفت سماء وهي تحاول كفكفة دموعها :

- وما العمل يا جماعة؟ أين من الممكن أن نجد أستاذتنا وكوكب؟

ردَّ مجد وهو يزفر في ضيق :

- وما الفائدة إذا وجدناهما؟ هل شاهدت حجم الدمار الذي حاق

بالكلية وبالمحقق؟ لم تعد الكلية صالحة إلا كعش للوطاويط والغربان

أما الملحق السكني فيكفي أن يسكنه الجرذان!

فلكرته سماء في ذراعها قائلة :

- لا تكن قاسي القلب، ألا يهملك أن تعرف مصير الأستاذة التي أفنت

سنوات كثيرة من عمرها في تعليم الناس الحكمة؟ وكوكب الرقيقة،

ألا تريد معرفة ما حدث لها؟

فعلق محب وهو يهز رأسه في أسى :

- وماذا سيفيد معرفة مصيرهما يا سماء؟ انسي الموضوع، لقد انتهى

حلمنا في دراسة الفلسفة والحكمة وأي شيء، دعينا نعود أدرأجنا إلى

بيوت أهاليينا نحاول تحسين علاقتنا بهم.

فاتسعت عينها في ذعر :

- ونقبل منطقهم الملتوي يا محب؟

فهتف مجد ساحراً :

- لا يوجد منطق ملتوٍ ومنطقٍ مستقيم يا سماء، المنطق هو المنطق، وما فيه أهالينا لا يُمت للمنطق بصلة، بل يُمت للتعصب والكراهية، وماذا بأيدينا أن نفعل؟ لقد رأيت أن المتقاتلين استكثروا علينا الدراسة.. مجرد الدراسة، إنني أريد أن أنجو بحياتي، لا أريد أن أموت أو أن أختفي في ظروف غامضة من أجل عيون العلم... ليذهب العلم والفلسفة إلى الجحيم!

ثم التفت مغادراً إياها دون أن يزيد حرفاً، وتبعه محب، ثم جميع الطلبة، ووقفت سماء وحيدة تعتصرها الحسرة ويكويها الحزن أمام الكلية والملحق السكني اللذين أصبحا خراباً وأطلالاً.

دبَّت الحياة مبكرة كعادتها في سوق المملكة، خاصة أن اليوم كان من الأيام النادرة التي لم يصحو فيها الناس على صوت القتال، فأسرعوا الخطى لشراء احتياجاتهم وقضاء مصالحهم قبل احتدام جولة جديدة من القتال الذي كان يبدو دوماً وكأنه بلا نهاية.

تسللت كوكب وقد تحفت بالكامل خلف ملابس قائمة وفضفاضة بحيث لم يكن يظهر منها سوى عينيها، كانت هذه هي زيارتها الثانية إلى السوق، فبعد أن زودتها ذرةً بالمال اللازم في المرة الأولى لشراء بعض الملابس والاحتياجات لنفسها بدلاً من تلك التي فقدتها على يد المقتحمين الذين سرقوا كل ما استطاعوا سرقة قبل تدمير الملحق، زودتها ثانية بالمال لتعويض النقص في المواد الغذائية الذي واجههما بعد أسبوعين من الاختفاء التام، ورغم أن كوكب كانت قد فقدت مورد رزقها الوحيد وهو العمل بالحياكة، إلا أنها سعدت واطمأنت لارتباط مصيرها بمصير أستاذتها، واقترنت سعادتها بإيمان غرسته فيها أستاذتها بعدم الاستسلام إلى الواقع المرير وضرورة العمل على تغييره. وكانت أولى الخطوات هي الاختفاء التام عن عيون الناس حتى ينسى المهاجمون انجھولون أمرهما تماماً ويكتفیان بما نهبوه من الكلية والملحق السكني وبما أحدثوه من تدمير فيهما.

ويعد أن اشترت كوكب ما يحتاجونه من مواد غذائية، حملت حملها الثقيل وسارت به وهي تعمل على ألا يراها أحد، فقد كانت تدخل وتخرج من باب الخروج الخاص بحجرة السرداب والموجود خلف أطلال الكلية والملحق، والذي لا يمكن اكتشاف كونه باباً أبداً من الحائط الخارجي، فتلفتت أكثر من مرة يمناً ويسرة قبل أن تيمم شطر البيت من طريق ملتوٍ لمزيد من الاحتياط.

وفيما هي على وشك الولوج إلى عطفة فرعية على الطريق تمكثها من الوصول إلى مرادها لحت سماء وهي واقفة عن بُعد تتأمل الخراب الذي لحق بمبنى الكلية ويبدو الأسى والحزن على وجهها، فكرت في لحظة أن تناديهما، أو حتى أن تذهب إليها بجدوء لمخادثتها، لكنها تذكرت التحذيرات الصارمة لأستاذتها بالألا يعرف مخلوق بأنهما على قيد الحياة، فأكملت طريقها وقد دمعت عيناها، فقد كانت تحب سماء وتأنس لصحبتها، والآن هي ترى أنها قد حُرمت من الجميع في سبيل ما تؤمن به... أو ما أصبحت تؤمن به.

ولجت كوكب إلى الحجرة فوجدت أستاذتها وقد انكبت على قراءة كتاب، فنسيت حزنها وسط دهشتها، وسألتهما وهي تقوم بإخراج المون ورضها في أماكنها :

- من أين أتيت بهذا الكتاب يا أستاذتنا؟

فردت دُرَّةً مهدوءً وهي تبتسم :

- من مكيتي الخاصة الموجودة في الملحق السكني طبعًا.

فاتسعت عينا كوكب في دعر :

- لماذا صعدتِ إلى الملحقِ إلى سيدتي؟ إنكِ تعرضين حياتكِ للخطر بهذه الطريقة.

فردت دُرَّةً وهي لا تزال تحتفظ بابتسامتها :

- إنني بدأت منذ يومين في زيارة منتظمة للمكتبة في الملحق في وقت متأخر من الليل، فقد اشتقت للكتب ولم أعتد أن أفارقها كل هذا الوقت.

- وماذا وجدتِ يا أستاذتنا؟

فردت ضاحكة بسخرية مريرة :

- وجدت دمارًا ما بعده دمار، حتى كتب الشعر جرى حرقها وتمزيقها ولا أعرف لماذا، لكن يبدو أن المهاجمين كانوا على عجل، أو أن تركيزهم على السلب والنهب فاق تركيزهم على التخلص الكامل من الكتب، فوجدت بالفعل عددًا كبيرًا من الكتب السليمة، فما كان مني إلا أن بدأت في إنقاذها، وها هي ذي الدفعة الأولى التي نجحت بالفعل في نقلها.

وأشارت إلى كومة من الكتب الموجودة بجوار الصوان الكبير في الحجرة.

بدا على كوكب العجب الشديد، وانبرت قائلة :

- ولكن يا أستاذتنا تستطيعين شراء كتب جديدة، فنسخ متنوعة من هذه الكتب موجودة في الأسواق، ولا أعتقد أن مكتبك بها كتب نادرة.

- الأمر لا يتعلق بالندرة ولا بالوفرة يا كوكب، الأمر يتعلق بارتباطي الروحي بهذه الكتب التي علمتني الكثير على مدى سنوات عمري، التي عاشرتني في ليالٍ طويلة كانت فيها أنيسي وجليسي، والتي يحمل أغلبها ملاحظات بخط يدي، إنها في النهاية جزء من حياتي ومني.

- ولكن يا أستاذتنا ... لو شاهدك أحد...

- ربما يظنون إنني روح تهيم في مكانها يا كوكب !

وأعقبت جملتها بضحكة طويلة، لكنها لاحظت أن كوكب لم تضحك، فاقتربت منها وسألته بنبرة قلقة :

- ماذا بك يا كوكب؟

فقال كوكب بعد لحظة تردد :

- لقد شاهدت سماء اليوم واقفة أمام أطلال الكلية ويبدو عليها الحزن والأسى.. ففكرت.. فكرت أن... أناديها أو.. أتحدث معها... لكنني...

عقدت ذرّة ذراعها أمام صدرها وهي تقول والابتسامة لا تفارق وجهها :

– لكنك ماذا يا كوكب؟

– لكنني خشيت أن أعصي أوامرك فتغضبي مني.

أحاطت دُرّة كتف كوكب بذراعها في حنان دافق، وأجلستها إلى

جوارها برفق على إحدى الأريكتين ثم قالت لها في هدوء حاسم :

– سوف نرحل من هنا في خلال عشرة أيام على الأكثر يا كوكب،

وعليه، فقد أحسنت التصرف بعدم الحديث مع سماء.

فاتسعت عينا كوكب في دهشة وذهول :

– نرحل؟! إلى أين يا أستاذتنا؟

فسرحت دُرّة ببصرها، ثم قالت بعد فترة من الصمت :

– إلى حيث نعود إلى العمل لنهزم ما يسميه الناس... لعنة أورشليم.

وفغرت كوكب فاها، لكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شفة.

– يا مرحباً يا مرحباً بأستاذة الفلسفة الشهيرة فخر عائلتنا، أهلاً بك في بيتك يا دُرَّة.

هتف هادي بهذه العبارة في ترحاب شديد، وهو يفتح ذراعيه لابنة عمه التي تصغره بأكثر من عشر سنوات، وعانقها بود كبير وهو يربت على ظهرها بمحبة حقيقية، وكان هادي رجلاً طويلاً القامة عريض المنكبين مستدير الوجه يتجلى في ملامحه مزيجٌ نادر الوجود من الطيبة والرجولة والجدية والصرامة، ويحيط برأسه فودين أشيبين يمثلان نقطتي التنكيف للون الفضي الذي يزحف بتؤدة على خصلات شعره الأسود الناعم، وكان أهم ما يميز هادي عيناه الخضراوان الودودتان الصارمتان في الوقت ذاته.

وبعد ترحيبه الحار بدُرَّة، انتبه إلى وجود من يرافقها، فتقدم نحو كوكب بابتسامة عريضة مرحبة وشدَّ على يدها بود، عرفتهما دُرَّة ببعضهما، ثم اتجهوا جميعاً إلى داخل البوابة، وكان الخدم يتبعونهم حاملين الأغراض العديدة التي كانت في السيارة التي أقلت دُرَّة وكوكب إلى مقرهما الجديد، وبمجرد ولوج كوكب من البوابة أذهلها ما رأت، فقد تصورت للحظة أنها قد غادرت الحياة وتم حسابها وأنها الآن على أبواب الجنة، ثم

أفاقت من هذا الخاطر وبدأت بالفعل في تأمل واقع لم تر مثله من قبل، هذا بالإضافة إلى كونها ستعيش في هذا المكان لفترة طويلة قادمة. فقد كان هادي يسكن قصرًا منيفًا بديعًا تحيط به حدائق غناء تحيط بأسوارها صحراء قاحلة، حتى أن العبور من بوابة القصر لا يعني فقط العبور من قحط الصحراء إلى جمال البساتين، بل يعني العبور من قيظ مستعر إلى جو منعش يكلله النسيم العليل.

وتضاعف انبهار كوكب عند عبورهم بوابة القصر ذاته والتي كشفت عن أبهة كأبهة الملك، ودرجة من الشراء ربما لم ترها كوكب في حياتها كلها حتى هذه اللحظة. فطلت على هذا الذهول وفقدت القدرة تقريبًا على التعبير بالكلمات عما يجيش في نفسها، فاختارت أن تظل صامتة وهي لا تتوقف عن التمتع بمشاهدة ما حولها، وسمعت في هذه الأثناء دُرَّة تقول لهادي :

– لقد أضفت جماليات أخرى إلى القصر يا هادي بخلاف تلك التي رأيتها في زيارتي الأخيرة منذ ما يزيد قليلاً ربما عن ثماني سنوات، لقد أصبح حقًا خلابًا.

فرد هادي بضحكة صافية :

– ها قد اعترفت يا عزيزتي أنك لم تزوري بيت العائلة منذ أكثر من ثماني سنوات، وهذا أمر يستوجب توقيع عقوبة عليك.

فضحكت دُرَّة وهما يجلسان :

- وهل توجد عقوبة أكبر من أن يتحول بيت العائلة إلى منفى اختياري  
يا عزيزي؟

ضحك هادي مرة أخرى :

- أنت هنا في أمان تام يا دُرّة، ليس فقط لأن لدينا قوة خاصة بنا من  
الحرس تحميننا، ولكن لأن وقوع قصرنا في هذه المنطقة الصحراوية قد  
حمانا لعقود طويلة من هذه الحرب الطائشة التي تعصف بالأرواح منذ  
قرن من الزمان، ولو أن عمي - والدك - رحمه الله استمر في العيش  
معنا ولم يصر على الرحيل إلى مملكة الصف، لربما كان حيًّا يُرزق بيننا  
اليوم.

فتحدثت كوكب للمرة الأولى هامسة وكأنها تخشى الكلام :

- ولكننا يا سيدي... أعني أننا بعيدين عن حدود مملكة الصف، لقد  
تركنا حدودها خلفنا منذ ما لا يقل عن ست ساعات... أقصد أين  
نحن بالضبط الآن؟

فأجابها هادي مبتسمًا :

- إن قصرنا يقع كنقطة مركزية بين ثلاث مناطق كان من المفروض أن  
يصبحوا منطقة واحدة في يوم من الأيام، لكن نشوب القتال حال  
دون ذلك، وهذه المناطق الثلاث هي : مملكة الصف، ومملكة الجوار  
التي تتبعها إداريًا ويقع القصر على أطرافها، ومنطقة أطلال أسوار  
أورشليم.

هتفت كوكب وقد اعترأها فضول شديد :

- هل يمكنني أن أشاهد أطلال هذه الأسوار؟

فنظر كل من ذرّة وهادي لبعضهما البعض مبتسمين في هدوء، ثم انبرى هادي قائلاً :

- بالطبع يا بني، فهي على بُعد حوالي عشرة كيلومترات فقط من هنا.

- ولكن، هذا يُكذب كل ما يُقال من كون أورشليم وهم تاريخي.

- لا يمكن أن تكون أورشليم وهماً يا عزيزي، والدليل ليس فقط أطلال أسوارها الباقية، ولكن الدليل الأهم هو كيانات حية نابضة أمامك، أستأذتك وأنا ومن يسكنون في هذا القصر.

بدا على كوكب عدم الفهم، فالتقطت ذرّة طرف الحديث وقالت لها وابتسامة عريضة تعلو شفيتها :

- يا كوكب، هذا بيت أولاد نجم المقدسي... آخر من سكن في أورشليم.

كانت القصة التي رواها هادي بن شامل بن بارح بن نجم بن أقمر يوسف بن ببحر المقدسي إلى كوكب من الجدّة والطرافة والغرابية بحيث أنستها تمامًا مشقة الرحلة الطويلة التي زادت على الساعات التسع والتي قطعها مع أستاذتها في سيارة مجهزة أرسلها لهما هادي خصيصًا منذ فجر اليوم بناء على اتفاق مسبق واتصالات متعددة جرت بينه وبين دُرّة، ليقطعوا بها المسافة الواقعة بين أطراف مملكة الصف وهذه اللجنة القائمة في قلب الصحراء عبر جميع الدروب غير المطروقة والطرق غير المعروفة بعيدًا عن دوائر القتال وعيون المتلصقين، وأخذت بين كل فقررة في الحكاية وأخرى تنظر إلى أستاذتها وكأنها تراها وتتعرف عليها للمرة الأولى، أستاذتها دُرّة بنت أكمل بن بارح بن نجم بن أقمر يوسف بن ببحر المقدسي، التي عرفت اسمها كاملاً للمرة الأولى الآن.

روى هادي وفقًا لما تركه جدهم الكبير نجم في مذكراته - التي كانت الأسرة كلها تحفظها عن ظهر قلب - الحكاية منذ بدايتها، ثم استطراد كيف تحسر قلب نجم وضاعت أحلامه عندما اختفت أورشليم من على وجه الأرض دون سبب واضح، وكيف عاد إلى بيته كسير الفؤاد وظلّ صامتًا في حزنٍ متواصل لأيام طويلة حتى خرج ذات يوم على أبيه

يوسف وجده السيد ببحر وأخبرهما أنه يريد أن يتزوج وفي أسرع وقت ممكن، وعلى الرغم من دهشتهما الطاغية من هذا الطلب إلا أنه أوضح لهما بهدوء أنه ينوي أن يؤسس بعون الله أسرة كبيرة تعوضه عن أسرته التي فقدتها في أورشليم، فشجعه أبوه وجده، ولم يكن صعباً على أثرياء مثلهم إيجاد عروس صغيرة جميلة، فاختر نجم فتاة من أسرة عريقة يتصل أביها بصلات مصاهرة مع الأمير الحاكم لمملكة الجوار، وتم الزواج في وقت قصير، وحضرت العروس لتعيش في قصر أسرة عريسها، وتوالت الأيام والشهور والسنوات، والأسرة تكبر في حمل تلو الآخر حتى بلغ عدد من أنجبهم نجم أربع من البنات وستة من البنين، عاشوا جميعاً في خير ورخاء، ومنهم من اشترك في مساعدة أبيه نجم وجده يوسف في ورشة صناعة الحلبي التي اتسعت اتساعاً كبيراً، ومنهم من اختار لنفسه طرقاً تنوعت بين الطب والتجارة وغيرهما، ومنهم من استمرت إقامته في قصر العائلة ومنهم من رحل إلى أماكن أخرى كل وفق ظروفه. وقد توفي السيد ببحر المقدسي قريير العين بعد أن شهد ميلاد حفيده العاشر والأخير. وبعد وفاته، قرّر نجم إلحاق اسم أبيه يوسف باسم والده أقمير ليصبحا اسمًا مركبًا وكأنهما شخص واحد، ونسبهما معاً إلى السيد ببحر المقدسي، ومع مرور السنوات أصبح هو شخصياً يُعرف باسم نجم المقدسي، وأصبحت عائلته الكبيرة - التي أضحت ثرية أيما ثراء وشهيرة ورائدة في صناعة الحلبي وتجارة الجواهرات - تُعرف باسم أولاد نجم

المقدسي. وقد تزوج الأبناء جميعًا في حياة أبيهم نجم وجدهم يوسف، وأنجبوا أعدادًا كبيرة من الأحفاد، منهم من تزوج بأبناء أعمامه وعماته ومنهم من تزوج من خارج الأسرة، ثم توفي يوسف بن بئير المقدسي، ثم بعده بعشرين عامًا توفي نجم بن أقمير يوسف بن بئير المقدسي، منذ حوالي ثلاثين عامًا، وبعد أن شهد الزيجة رقم ستين بين أحفاده المتتابعين! ثم اختتم هادي بقوله :

-لكن... بعد كل النجاح والثروة والجاه والبنين والبنات، لم تغب ذكرى أورشليم لحظة عن نفس جدنا، وطبعت وصية والدته له بالتمسك بالحرية كل مبادئه وأفعاله، وكم كان يتضرر عند سماعه أنباء القتال المضطرب وما يقوله الناس عن كون هذه لعنة أورشليم، فقد أذاقته أورشليم هو شخصيًا آلامًا كثيرة، وكم كانت نفسه الطيبة تمفو إلى الحرية والسلام والمحبة، لقد مؤلّ المئات من الجمعيات والفرق والأبحاث والحركات والمنظمات الداعية إلى السلام والاستقرار ونبذ التعصب والفرقة وغرس فكرة وأهمية الاختلاف في إطار إنساني من التعاون، وكانت جهوده تنجح مرة وتحقق مرات، فقوى التعصب المذموم كانت له دومًا بالمرصاد. لقد كان جدنا دومًا موقنًا بأن اليوم الذي دفعته فيه والدته لكي يهرب من أسفل بوابة أورشليم كان يعني أنها كانت تنقذه من العبودية والأسر وتدفع به إلى رحاب الدنيا ليتعلم منها ويضيف إليها، وقد استنتج مع خبرته

وتقدمه في العمر أن هذا يعني أن أورشليم كانت - بشكل أو بآخر - تفرض عليهم قوالب جامدة ليظلوا تحت سيطرتها للأبد، وأن والدته بفظنتها الفطرية قد أدركت ذلك، فأرادت النجاة بأسرتها، فلم ينجو إلا هو... رحمة الله على الجميع. ولذلك، فنحن نفخر الآن في عائلتنا بدرة، فهي تسير على نفس درب جدنا نجم المقدسي، وإن كانت الوحيدة التي كرّست حياتها بالكامل لهذا الأمر، فلم تدع أية أمور خاصة تشغلها عن سعيها الحثيث لتحقيق حلمنا جميعاً.

ظلت كوكب صامته مدهوشة تنصت باهتمام بالغ وتركيز تام إلى كل حرف ينطق به هادي، وعندما أتمى آخر حروف كلماته، اندفعت تستفسر منه عن جوانب مختلفة من هذه القصة الفريدة التي قلبت ميزان أفكارها رأساً على عقب. وكان هو على درجة من رحابة الصدر واتساعه ما جعل حديثهما يمتد لما فاق الساعات الثلاث، وكانت درة قد فارقت مجلسهما لكي تسلّم على أهل البيت : زوجة هادي وأولاده الأربعة، وشقيق له يكبره لم يتزوج وكرس حياته لمهنة الطب، وشقيقة أرملة تصغره وتعيش في كنفه مع ابن لها لم يتخط السابعة من عمره ويكفله خاله هادي بالرعاية الأبوية والاهتمام.

وفي نهاية اليوم، اجتمع الجميع حول مائدة العشاء في جو تسوده المودة ويتوجه الإخاء، ثم غادر كل إلى حجرته، وكان قد تم تخصيص حجرتين

متلاصقتين متصلتين بباب داخلي لدُرَّة وكوكب، وقد ارتمت كل منهما على فراشها في حجرتهما بعد أخذ حمام دافئ واستسلمتا لنوم عميق بعد نهار طويل.

أحسَّت كوكب بديب الحياة في القصر منذ الصباح الباكر بحركة الخدم لإعداد الإفطار وحركة العمال لري الحديقة، وقامت في هذه الساعة المبكرة وهي تشعر أنها قد وُلدت من جديد، كانت تشعر بأمان كامل داخل جدران هذا المكان الخلاب، وكانت تشعر بالاطمئنان لجوارقها الدائمة لأستاذتها وكذلك لأنها تعرفت على أسرتها الكريمة التي أحببت كل أفرادها وكانهم أهلها الذين افتقدتهم منذ زمان طويل، واثنتست بهذا الإنسان الرائع هادي الذي أحسَّت وكأنه التعويض القدرى العادل عن قسوة أبيها وأخيها، لكن قبل كل ذلك، وفوقه كله، كانت قصة جد الأسرة الكبير نجم مع أورشليم، هذه القصة التي من ناحية أدارت رأسها وكأنها خمرٌ معتقة، ومن ناحية أخرى غرست في نفسها الأمل وحب الحياة، حتى أنها أخذت تحادث نفسها وهي تقوم من فراشها وتأخذ حمامها الصباحي وترتدي ملابسها قائلة :

- يا لك من شجاعة أيتها الأم العظيمة قمر ! تُرى ماذا كان شكل مقاومة المدينة لك؟ هل كانت تملك جيوشاً؟ هل كان فيها ملك مثلاً أو طاغية دعاك إلى الهرب منه؟ كيف واثتك الشجاعة لكي تدفعي بطفل بالكاد تعلم الكلام وحده إلى العراء وأنت متأكدة أنه سينال

الحرية التي تمنيتها له وأوصيته بالتمسك بها؟ ماذا سيحدث الآن لو رأيت ما انتهى إليه ابنك وأولاده وأحفاده عبر عدة أجيال من الشراء والرخاء والرقى والصلاح؟ كم كنت ستفخرين بنتاج عملك، إنني أحد من يدينون لك، فلولاك لما كانت هناك أستاذة فلسفة جلييلة تدعى دُرّة، ولولاك ما كنت أنا هنا الآن.

(٧)

- هذا مشروع طموح تحفه المخاطر يا دُرّة.
- هتف هادي بهذه العبارة في قلق مُعلقاً على ما عرضته عليه دُرّة وهما جالسان في حجرة مكتبه الملحق بها مكتبة القصر، فردّت دُرّة قائلة :
- لماذا يا هادي؟ كل حلم بدا في بدايته مستحيلاً، هذا ما تشهد به كل منجزات الإنسانية.
- ولكن ما تقولينه ليس مجرد حلم يا عزيزتي، إنه انقلاب ستقومين به في معتقدات راسخة لدى الناس.
- الرسوخ وهمّ من صنع الزمن.
- بل الرسوخ حقيقة من صنع التعود.
- لقد استطاع الإنسان دومًا الانتصار على أصنام أفكاره وأوثان نفسه.
- كلا يا دُرّة، أخالفك في الرأي، الإنسان في النهاية ابن مجتمع وبيئة أثرت فيه وتشكّل في راحبها، وأنت تريدين إزالة كل ذلك في غمضة عين... كيف تتصورين أن يقبل الناس الذي تداولوا بينهم فكرة لعنة أورشليم في مائة عام أن يوافقوا بهذه البساطة على السُكنى في أرضها المهجورة حتى لو كانت النية وراء هذه الدعوة هي إنشاء مدينة جديدة؟!!

– ستكون مدينة لزراعة أشجار الزيتون وإنتاج الزيتون وزيتته يا هادي، وهذه صناعة لم يهزمها الزمن، بل هي تدر أرباحًا طائلة على صانعيها منذ فجر البشرية وحتى يومنا هذا، سنحدّث الناس عن منطقة جديدة متاحة لحدود مملكة الجوار ستتم بها هذه الصناعة المرجحة، لن نحدّثهم عن أورشليم المدينة التاريخية التي يكثر اللغط حولها، بل سنحدّثهم عن مدينة جديدة ستكون بها كافة وسائل الأمان والراحة سيتم إنشاؤها في منطقة الأطلال، وستتولى عائلتنا تمويل هذا المشروع التنموي بالكامل، ثم سنتقاسم عوائده مع السكان لعدد معين من السنوات وفقًا لعقود قانونية نرسمها معهم، ثم يصبح المشروع بأكمله بعد ذلك ملكًا لساكنيه، وبذلك نكون قد ضربنا عصافورين بحجر واحد: أولاً سنقضي نهائيًا على أسطورة لعنة أورشليم، ثانيًا: سنلهي الناس بالعمل والبناء والإنتاج في مكان جديد يعمرونه بسواعدهم فلن يكون لديهم قطعًا بعد ذلك الوقت الكافي للاقتتال حول عقائد بعضهم البعض، فلا تنسى أن البطالة كانت من أوضح الأسباب لنشوب حرب المائة عام، فلماذا يُعدُّ كل ذلك أمرًا مستحيلًا؟

– وهل تعتقدون أن الناس أغبياء يا دُرّة؟ إذا كانوا سيقبلون فكرة العمل والبناء والإنتاج في أرض جديدة، فهم لن يقبلوا قطعًا أن تكون هذه الأرض هي ذاتها منطقة الأطلال التي نعرف نحن أنّها أطلال

أسوار أورشليم ويعرفون هم أنها منطقة أطلال مسكونة بالجن وملعونة لأن أورشليم وهم تاريخي، أو لأنها لعنة تسكن هذا المكان!

- الخرافات تسكن النفوس الضعيفة فقط يا هادي، لكن الأمر الواقع الملموس سيكون حتمًا أقوى من أية خرافة، فإذا بدأ العمل جديدًا في عمليات البناء وإنشاء المدينة الجديدة في منطقة أطلال الأسوار بعد إزالة هذه الأطلال طبعًا فسيولد أمل الرخاء في النفوس، إن ميلاد الأمل يقضي على الخرافة، وثق أن الجن لن يستطيعوا تعطيل أعمال البناء!

قالت عبارتها الأخيرة بسخرية مريرة، وكان صوتها مع تقدم المناقشة قد اكتسب نبرة حادة، كما علا صوت هادي الجمهوري بطبيعته وهو يحاول إقناعها بعدم جدوى ما تفكر فيه، ثم سكت كلاهما لبرهة وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم قال هادي بعد أن زفر بقوة وكأنه يطرد ضيقه خارج صدره:

- لا أستطيع يا دُرّة أن أضمن مساندة العائلة لمشروعك، كما لا تنسى أن فكرة إزالة أطلال الأسوار يعني إزالة جزء من تاريخ مهم لعائلتنا، وهو ما سيقى عقبة كنود أمامك أيضًا لإقناعهم بما تريدون عمله، صدقيني يا دُرّة إنه مشروع خاسر على كافة المستويات، لن تجني منه سوى الخسارة.

أطرت دُرّة مفكرة لفترة طالت لدرجة جعلت هادي يظن أنها عدلت عن رأيها وأنها يئست من تنفيذ فكرتها. وفجأة، انتصبت رأسها بحدة، ثم قامت واقفة فبدت بقامتها المنتصبة شامخة كتمثال من آثار حضارة موغلة في القدم لم تؤثر عليه نوابس الدهر، ثم قالت في لهجة هادئة وقاطعة كسيف حديث الصقل :

– سآبني أورشليم الجديدة برهن ما أملك من مجوهرات وعقارات يا هادي، وسأعمر هذه الأرض الخربة بمساعدة من يحتاجون إلى أمان المستقبل وليس إلى أمان الماضي، وسأهدم أطلال الواقع من أجل هدم أطلال النفوس، وإذا خسرت فسيكفيني وقتها شرف المحاولة.

ثم تركت الغرفة دون إضافة كلمة واحدة أمام عيني هادي الذاهلين.

بدأت عملية إزالة أطلال أسوار أورشليم بعد أربعة أشهر كاملة من هذا الحديث، إذ لم يستطع أحد الوقوف أمام إرادة دُرّة الحديدية، فقد رهنت بالفعل مجوهراتها الثمينة وعقاراتها التي ورثتها عن أبيها وأمها وجدها وزوجها، فمنحتها المصرف المركزي سيولة هائلة للتمويل، وعندما أرادت شراء الأرض، أخبرها مسئولو العمران في المملكة بأنهم أخرجوا هذه الأرض من أملاك المملكة منذ زمان طويل بعد أن تشاءم منها الأمير الحاكم – الذي غزاها منذ مائة عام – وكل نسله، وهكذا أصبحت أرضاً بلا صاحب، وعليه اعتبرتها دُرّة الامتداد الطبيعي لأملاك

أولاد نجم، فاتخذت القرار بالشروع الفوري في البناء، واتصلت بأكثر شركة للمقاولات والبناء في المملكة، ورغم الاعتراضات المبدئية التي واجهتها نتيجة للأوهام المنسوجة حول هذه المنطقة، إلا أن الدفعة السخية المقدمة التي عرضتها ذرّة لبدء المشروع أسالت لعاب صاحب الشركة فتعاقد معها على إنشاء مدينة صغيرة اتفق معها على تسميتها "مدينة الزيتون" وذلك للبعد عن اسم أورشليم الذي ربما يثير المتاعب ويحد من الإقبال على المشروع، وكانت كافة الأوراق توقع باسم "ذرّة المقدسي".

وفي تصميمات المدينة الصغيرة، اشترطت ذرّة أن تحتوي المدينة على دور عبادة مختلفة كبرهان على كون المدينة الجديدة تفتح ذراعيها لكل العقائد والأديان، كما اشترطت أن يتم بناء كلية للتدريس الحر للفلسفة في مركز متميز يقع في قلب المدينة.

وكانت ذرّة تصطحب كوكب معها في كل تحركاتها واتفاقاتها وتعاقداتها، فقد جعلت منها مساعدة شخصية لها وخصصت لها راتباً مقابل ذلك. وأصبح أهل القصر لا يرونهما إلا بالمصادفة، ربما على مائدة طعام مرة، ربما أثناء دخولهما أو خروجهما مرات، ولم يستطع هادي إخفاء إعجابه الطاغى بإرادة ابنة عمه، لكنه لم يشأ التورط معها في مشروعها خشية غضب العائلة المتدمرة أصلاً من فكرة إزالة أطلال

الأسوار لتأسيس مدينة جديدة. فقد كانت هذه الأطلال هي الدليل الوحيد الباقي على وجود المدينة القديمة التي شهدت ميلاد وهروب جددهم الكبير نجم، وكأن هذه الأسوار كانت جزءاً عزيزاً من تراث العائلة، لكن دُرّة لم تعبأ بكل هذا، فقد كان الماضي بالنسبة إليها هو معين الدروس والعبر الذي لا ينضب، لكنه لم يكن أبداً العالم الوحيد الذي تحلم بالعيش فيه، إنها تحلم أكثر بالمستقبل، تحلم بالسلام والبناء والرخاء، تحلم بأن تتحول أنظار الناس إلى هذا الكيان الجديد بعيداً عن الاقتتال حول اختلاف العقائد والأديان، لقد كانت ترى أن إتمام نجاح هذا المشروع سيكون ضربة قاصمة للتعصب، وضربة قاضية للخرافة ولعصابات القتل والإرهاب التي لن تجد من تقتله بعد أن ينصرف الناس إلى البناء والإعمار تحت أغصان الزيتون.

وكانت دُرّة قد اتفقت مع شركة المقاولات على ضرورة رصف الطريق المؤدي إلى المدينة الجديدة لتسهيل الوصول إليها، وبالفعل كانت أولى خطوات البناء هي رصف وتمهيد الطريق المؤدي إلى مدينة الزيتون، وهو ذاته الطريق الذي كان درب الهروب للطفل نجم بن أقمرو والذي سقط مغشياً عليه فيه ليعثر عليه يوسف بن بجر المقدسي، وهو ذاته الطريق الذي قطعه نجم أيضاً وهو شاب يافع ذهاباً وإياباً محاولاً استكشاف أورشليم في رحلته التي عاد منها مصاباً بضربة شمس ويإصابات أخرى متنوعة، وهو ذاته الطريق الذي سار فيه الجيش الجرار بقيادة الأمير

الحاكم لمملكة الصف منذ أكثر من مائة عام وسار خلفه وفي غفلة منه نجم وأبوه يوسف، وهو ذاته الطريق الذي عادا فيه بعد اكتشافهما اختفاء أورشليم.

وبعد الانتهاء من رصف الطريق، لم يعد قصر أولاد نجم المقدسي معزولاً كما كان، بل أصبح يقع مباشرة على الطريق المؤدية إلى المدينة الجديدة التي يجري بناؤها، وقد سارت في هذا الطريق السيارات التي تحمل معدات البناء وأدوات الحفر إيذاناً بالبدء في إنشاء مدينة الزيتون، وكانت أولى الخطوات لتحقيق ذلك هي هدم الأطلال الباقية للأسوار الموغلة في القدم والتي كان جيش الأمير الحاكم لمملكة الصف قد صنع ثغرة فيها لاقتحامها ثم تركها على حالها وغادر بلا عودة.

وكان يوم البدء الفعلي في أعمال الإنشاء في المدينة - بعد أربعة أشهر من المناقشة الحامية التي دارت بين دُرّة وهادي - يوماً مشهوداً في عائلة أولاد نجم المقدسي، فقد اجتمع القاصي والداني من أفراد العائلة، وأصبح القصر فجأة مزدحماً بعدد هائل من البشر لا يتصور أحد أنهم ينتمون جميعاً في الأساس إلى فرد واحد! وعلى الرغم من أنه جرت بالفعل في صباح هذا اليوم عملية إزالة أطلال سور أورشليم، وأشرف مدير موقع البناء بنفسه على نقل أجزاء متوسطة الحجم من السور العتيق إلى القصر بناء على طلب دُرّة لتحفظ بها العائلة كذكرى، إلا أن الجدل كان لا يزال دائراً بين أفراد العائلة، ليس فقط حول هدم

السور، ولكن أيضًا خطورة إعمار المنطقة بشكل رأى بعض أفراد العائلة أنه أضاع هيبة القصر الذي تميز على مدى ما يزيد عن مائة عام بعزلته وتفردِه.

وبعد جدال طويل مع العديد من أفراد العائلة وخاصة الكبار سنًا فيها، حصلت دُرّة على تأييد معظمهم عندما أقنعتهم ببساطة أن ما تفعله ما هو في الواقع إلا إحياء لكل القيم التي نادى بها وعمل لأجلها جدّهم الكبير، وأثارت حميتهم عندما قالت لهم إنه سوف يُنسب لأولاد نجم المقدسي أنهم هم الذي قضوا على حرب المائة عام، قضوا عليها بدون إراقة نقطة دم واحدة، قضوا عليها عندما حاربوا التعصب بالبناء والإعمار وحاربوا الكراهية بغرس أشجار الزيتون، وأقنعتهم أن هدم سور عتيق أو رصف طريق أمام القصر يُعد لا شيء أمام تحقيق معانٍ أسمى تمثل الإرث الحقيقي لعائلتهم التي اشتهرت بتمويل الكثير من الأعمال الخيرية والفكرية والاجتماعية على مدى عقود طويلة.

كانت كلمات دُرّة تنطلق كسيوف من النار تكسر وتصهر هذه الطبقة الثلجية من الأنانية والعجرفة التي أحاطت بقلوب بعض أفراد العائلة لتخرج من نفوسهم أفضل ما ورثوه عن آباءهم وأجدادهم من حب للعلم وللتسامح ومن رغبة دائمة في رعاية الاختلاف والتنوع اللذان هما زينة الحياة وعنوان بقائها.

كسبت ذُرَّةَ معركتها بالكامل مع عائلتها، وخرجت مدعومة بمساندتهم  
المعنوية والمادية، واختفى الموقف المتردد لهادي ابن عمها الذي أقرَّ أمام  
الجميع بتقصيره في حقها وعدم التمعن في فهم رسالتها، واعتذر لها وقَبَّل  
رأسها على مرأى ومسمع من العائلة كلها.

(٨)

سار العمل على قدمٍ وساق في المدينة الجديدة، وتوازت معه حملة إعلانية كبيرة، وفي البداية تصور الناس أن في الأمر مزحة، ورغم عدم ذكر اسم أورشليم في الحملة، إلا أن الأخبار الشفاهية التي تطايرت في كل مكان كانت أقوى وأكثر تأثيراً من أية حملة منظمة، وأصبحت سيرة مدينة الزيتون على كل لسان، وتوقف الحديث عن الجن والعفاريت والمنطقة المسكونة بعد أن أصبحت منطقة المدينة القديمة تعج بآلات الحفر والبناء وبالمئات من العمال والعشرات من المهندسين والمشرفين، ووجد الكثير من الشباب في هذا المشروع الأمل البازغ الذي يخلصهم من رحى القتال الدائر الذي لا يهدأ، خاصة وأن دُرّة كانت قد طلبت أن يُضاف إلى الحملة الدعائية الإعلان عن فرص متميزة للشباب من الجنسين للإقامة في المدينة في مقابل الاشتراك في أعمال بنائها، فوجد الكثير من الشباب في هذا الأمر الخلاص لهم مما كانوا يعانونه من قسوة أهاليهم، فبدأوا في هجر مملكة الصف - حيث يتمركز القتال - في جماعات، وبمجرد إنشاء الوحدة السكنية في المدينة الجديدة وتأثيرها كان يتم شغلها على الفور، فعمرت المدينة بالبشر قبل أن يكتمل بناؤها، وانشغل الجميع بالعمل فكان الوقت المتبقي بالكاد يكفي لتناول الطعام

والنوم، وكان من مجموعات الشباب التي جاءت تلاميذ دُرّة القدامى جميعهم، وكانت على رأسهم سماء التي ذابت في دموع فرحتها وهي تحتضن كلا من أستاذتها العزيزة دُرّة وصديقتها الحبيبة كوكب.

وقد ساعد هذا النمو السكاني السريع على الانتهاء من إنشاء المدينة وعلى غرس أشجار الزيتون - التي طالما حملت دُرّة بها - في وقت قياسي. وقد تمّ تأسيس مجلس لإدارة المدينة من عائلة أولاد نجم المقدسي وأسته دُرّة بشكل شرقي، كما أعيدت المدينة إلى حدود مملكة الجوار فأصبحت تتمتع بالحماية القانونية والشرعية اللازمة لاستمرار بقائها، وزارها الأمير الحاكم للمملكة مفتوحًا إياها في حفل بهيج جذب أنظار العالم كله إلى هذه المنطقة التي نهضت كالعنقاء من وسط الرماد، وقلد الحاكم دُرّة وشاح "الحامية العظمى للوطن" أعلى وسام تمنحه المملكة وكان لا يُمنح إلا للملوك والرؤساء.

ورغم أن الاسم الرسمي والمتداول والمعلن للمدينة كان مدينة الزيتون حتى أنّها اتخذت غصن الزيتون شعارًا لها، إلا أن الاسم الذي حملته السنة الناس جميعًا بلا استثناء كان أورشليم الجديدة، وكأنهم كانوا بهذه التسمية يهزمون كل مخاوفهم وأساطيرهم ليصنعوا وهم في كامل عقولهم ووعيهم حقيقة واقعة يعيشون في كنفها آمنين مطمئنين.

وهكذا، ضربت شهرة المدينة الوليدة الآفاق، وتحدثت عنها الدنيا بأسرها، وجاءتها وكالات الأنباء العالمية تغطي وقائع افتتاحها وتصور مشاهد يومية من الحياة فيها، وذكرت إحدى تقارير المتابعة الإخبارية إنه بعد عامين من افتتاح المدينة لا يزال النشاط يدب في أوصال أفرادها، فيتعاونون جميعاً في العمل دون غصاصة، وعندما يأتي وقت صلاة أو عبادة لأي منهم فإنه ينسحب بهدوء إلى المكان الذي يخص عبادته دون حتى أن يثير انتباه أحد، فالكل يعمل ولا وقت لمراقبة الآخرين والتربص بهم، وعائدات المدينة من تجارة زيت الزيتون فقط أصبحت تضرب أرقاماً قياسية ليس فقط لجودة المنتج ونقاوته، ولكن لأنه يحمل اسم هذه المدينة البازغة الواعدة التي شغلت العالم بأسره، هذا طبعاً بخلاف تجارة الزيتون والنسيج والعمود والأحجار الكريمة والمجوهرات، وهذه الأخيرة تحديداً تولاهما هادي المقدسي الذي أسس على نفقته الخاصة ورشة ضخمة في أكبر أحياء المدينة لصناعة الحلبي والمجوهرات وصقل الأحجار الكريمة - بخلاف الورشة الرئيسية الملحقة بالقصر - وتولى تدريب مجموعة من خيرة شباب الوافدين على المدينة الذين أصبحوا صنّاعاً مهرة بعد وقت قصير. وقد أدى ازدهار الحركة الاقتصادية والتجارية للمدينة إلى أن غطت ما أنفق لبنائها في وقت أقصر بكثير من المتوقع، وجنت عائلة أولاد نجم أرباحاً طائلة قبل أن يتقرر تملك الوحدات لسكانها مع تمتعهم الكامل بكل عوائد أعمالهم في المستقبل... تماماً كما حملت دُرّة.

ووسط كل هذا، لم يعد هناك متسعٌ لتغطية حرب العقائد التي لم تعد دائرة في مملكة الصف ولا في مملكة الجوار، فقد انقسم المتقاتلون إلى فريقين: فريق هجر مناطق القتال متجهًا للحياة الجديدة في المدينة الجديدة، وفريق أصرَّ على استكمال القتال فأفنى بعضه بعضًا في زمن قصير، حتى لم يعد هناك متقاتلون في أي مكان، ولم يعد على المسلمين الباقين على قيد الحياة من مهمة سوى مواراة الجثث التراب.

انتهت حرب المائة عام من تلقاء نفسها، فلم يتدخل لإنهائها أحد، لقد قضت على نفسها بنفسها، وكان هذا أكبر ضمان ألا تقوم لها قائمة مرة أخرى.

انتقلت دُرَّة ومعها كوكب - ظلها الذي أصبح لا يفارقها أبدًا - إلى السُّكنى في المدينة الجديدة في بيت أنيق يليق بمكانتها، وكان ظهور دُرَّة في أي مكان في دروب المدينة كافيًا ليلتف الجميع حولها يحيطونها بكل آيات الإجلال والإكبار والاحترام، وكانت هي كما كانت دائمًا بتواضعها وهدوئها وعدوبتها وصرامتها وتقديسها للعلم والعمل. وقد عادت لتدريس الفلسفة تخصصها الأصيل في الكلية التي أنشأتها في قلب مدينة الزيتون، وتوافد الطلبة على كل شاكلة ومن كل الشرائح العمرية لمتابعة دروسها، فالدراسة الحرة كانت مفتوحة للجميع.

مرّت الآن عشرون سنة كاملة...

دُرّة الآن على مشارف السبعين، لا تزال تعيش معها كوكب ذراعها اليمنى، ولكن ليس وحدها، فقد تزوجت كوكب من مجد تلميذ دُرّة القديم وأنجبا بنتًا أطلقا عليها اسم "قمر"، فلم تكن كوكب قد كفت عن افتائها وإعجابها بالأُم الشجاعة "قمر" التي دفعت بابنها "نجم" نحو الحرية إنقاذًا له من العبودية، وكانت بهذا الفعل المتناهي في شجاعته صاحبة الفضل في تأسيس عائلة بأكملها وفي إعادة إحياء مدينة من العدم.

تبلغ قمر ابنة كوكب ومجد من العمر الآن ثمانية عشرة عامًا، يعمل أبوها مجد في تجارة زيت الزيتون، وتعمل أمها كما كانت تعمل دائمًا كمساعدة لدُرّة سواء في شئون تتعلق بالكلية التي اتسعت وتنوعت أفرعها وتحصصاتها، أو في شئون تتعلق بالمدينة، إذ كانت دُرّة لا تزال الرئيس الشرقي لمجلس إدارتها. ومع مرور السنين، تعود كل من كوكب ومجد على مناداة دُرّة بأمي وتعودت قمر بالتبعية على مناداتها بجديتي، وكانت قمر شغوفة بالفلسفة مثل جدتها، حتى أنها اختارتها كمتخصص لها أيضًا بعد أن أتمت تعليمها المدرسي في مدرسة المدينة.

كما تزوج محب وسماء تلميذا دُرَّة قبل زواج مجد وكوكب بعام واحد، وأنجبا ذكراً أطلقا عليه "أقمر"، ويبلغ أقمر الآن تسعة عشر عاماً، ويسكن مع أبويه في بيت قريب من بيت قمر، لا تعمل سماء، إنها تكتفي بحضور بعض المحاضرات الحرة في كلية الفلسفة، كما أنها تحب القراءة، ويدرس أقمر في كلية الفلسفة ولكن في شعبة اللغات منها، ويعمل محب رب الأسرة مشرفاً عاماً على ورشة تصنيع الحلبي والجوهرات العملاقة الموجودة في المدينة، وهي الورشة المملوكة لهادي المقدسي الذي أقعدته شيخوخته عن الحركة وانشغل أبناءه الأربعة بمهن مختلفة، فتولى إدارة العمل في الورشة سليم الصفتي ابن أخته الأرملة الذي كان يعيش في كنفه، والذي لم يكن يوم أن جاءهم دُرَّة لتستقر في بيت العائلة منذ أكثر من عشرين عاماً قد تخطى بعد السابعة من عمره، وما هو الآن في الثلاثين، شاباً وسميماً ناجحاً وثرياً، يدير أعمال خاله هادي الذي هو فعلياً في مقام أبيه، ويشرف بنفسه على توزيع الأرباح السنوية للورشة على خاله وزوجة خاله وأولادهما بأمانة تامة، ويدير الورشة العملاقة بمهارة وكفاءة وحذق ويدير إلى جانبها مصالح مالية أخرى تخص عائلة أولاد نجم، كما أنه يتميز بأخلاقه العالية واستقامته وتواضعه، شأنه في ذلك شأن معظم أفراد عائلته الكريمة.

وكان سليم يقرب منه مُحباً - زوج سماء ووالد أقمر والمشرف العام على الورشة - ويتق فيه، ليس فقط لأن مُحباً كان يكبره في العمر، ولكن

لأن شخصية محب الهادئة المسالمة التي تتميز أيضاً بالأمانة والكفاءة في العمل كانت أقرب إلى طباع سليم وشخصيته. وعلى النقيض، لم يكن سليم يشعر بأدنى قبول تجاه ابن محب، هذا الشاب الترق المدعو أقمر ! ورغم كون هذا الشاب يحمل اسماً عزيزاً على عائلة أولاد نجم جميعاً، إلا أن سليم الصفتي لم يشعر يوماً بأنه يتقبل هذا الشاب، وكان هناك حاجزاً نفسياً غير مرئي بينهما، وكان أقمر يبادل الشعور نفسه، وبمجرد أن حاول محب مرة التلميح لابنه بأن يتوسط له لدى سليم ليقبله للعمل في الورشة العملاقة، لم يتسنَّ لحب أن يكمل عرضه لأن أقمر انتفض كمن لدغه عقرب ورفض مجرد عرض الفكرة، وأعلن أنه يجب اللغات وبعد أن يستكمل دراسته لها فإنه سوف يتجه إلى تدريسها، ولم يفصح أكثر، لكن السبب الأساسي والحقيقي كان نفوره من هذا الشاب المسمى سليم، والذي لولا قرابته للسيدة دُرَّة المقدسي، لأعلن أقمر نفوره منه أمام الجميع، ولكنه كان يتحاشى أن يخوض في سيرته أو أن يذكره بسوء حتى لا يصل اللغظ إلى مسامع السيدة التي يحبها ويُجلها مثله في ذلك مثل الجميع.

ورغم أن كوكب وسماء كانتا ولازالتا صديقتين، إلا أن زوجيهما ليسا كذلك، فعلى الرغم من كون مجد ومحب كانا - مثلهما مثل زوجتيهما - تلميذين لدُرَّة، إلا أن استقرار الجميع في مدينة الزيتون وبدء وجه جديد للحياة قد أذن بوجه جديد أيضاً للعلاقات الإنسانية بينهم. ورغم أن

مجدًا ومحبًا كانا في السابق مقرين من بعضهما البعض، فقد باعدت بينهما الميول والأهواء وتباعد المصالح، وكشف تقدمهما في العمر عن فروق في شخصيتهما لم تكن ظاهرة وهما في مقتبل العشرينيات من العمر يدرسان الفلسفة في كلية مملكة الصف، لكنها أضحت جلية الآن بعد كل هذه السنوات وما حدث بها من تقلبات وتغيرات؛ فمجد يسعى دومًا وراء مصلحته الشخصية ولا يهتم كثيرًا بالأواصر الإنسانية ويحسب كل أمره بمدى استفادته المادية أو المعنوية ولا يضع للتواصل الإنساني المُنزَه عن الغرض أي اعتبار، وهو أمر لا يتفق مع محب المسالم الهادئ الرومانسي الذي يتمسك بمنظومة أخلاقية صارمة ويتسم بالنزاهة وعلو النفس.

وقد تبينت كوكب سريعًا هذه الصفات بعد زواجها من مجد، وفكرت في إمكانية الانفصال عنه لاختلاف أهدافهما كلية في الحياة، لكن مجيء قمر إلى الدنيا أفسد خططها، فلم تكن تريد أن تنشأ ابنتها في أسرة مفككة، فتحملت زوجًا أنانيًا - لا يفكر طوال الوقت إلا في نفسه - فقط لتربي ابنتها، وقد أحدث التوازن في حياتها وجود دُرّة معها، مما أُلجم كثيرًا من طباع مجد السيئة وحال بينه وبين تعكير صفو حياتها، فانشغل بتجارته التي تدر عليه أموالاً لا بأس بها لم يكن مجال ييخل بها على ابنتها الوحيدة قمر التي كان يتعلق بها تعلقًا شديدًا ويعدها من ممتلكاته الشخصية غير المسموح بالاقتراب نهائيًا منها، والفتاة الذكية

كانت تفهم مدى تعقد العلاقة بين أبويها فكانت هي الأخرى تحتمي  
بجدتها دُرّة، ونمت الفتاة على مبادئ الجدة وثقافتها مكلّلة إياها بالكثير  
من العقلانية والحكمة التي ربما كانت تسبق بها سنها بكثير.

وكان الحال مع سماء على عكس ذلك، فعلى الرغم من أن محبًا كان  
زوجًا رقيقًا عطوفًا وكأنه اسمٌ على مسمى، إلا أن هذا الولد أقمر كان  
ابنًا شاردًا وكأنه تربي في بيت آخر غير بيتها، فقد كان عصبيًا دائم  
الغضب شديد التمرد، لا يعجبه أي حال ولا يرضى عن أي وضع،  
شديد الطموح إلى درجة الجموح، لا يفكر طوال الوقت إلا في نفسه  
فقط، فأتى لوالديه بالكثير من المشكلات وحملهما الكثير من الهموم  
وجلب لهما من المتاعب ما لا يعد ولا يحصى، وكان الشيء الوحيد  
المضيء في حياته هو حبه لقمر بنت مجد التي كانت تبادل له الحب بمعرفة  
أمها وجدتها ومن وراء ظهر أبيها مجد الذي كانت تتوقع أن اليوم الذي  
سيعرف فيه هذا الأمر هو اليوم نفسه الذي سيهدم فيه البيت فوق  
رأسها، بل فوق رأسهم جميعًا.

وهكذا كانت سماء وكوكب الصديقتان الحميمتان تعرفان الحب المتبادل  
بين ابنيهما أقمر وقمر، هذا الحب الذي كانت تباركه دُرّة، ويغفل عنه  
كل من محب والد أقمر ومجد والد قمر.

وفي يوم من الأيام، طرقت سليم الصفي باب دُرَّة المقدسي - ابنة عم والدته - ففتحت له قمر ورحبت به بابتسامة عريضة، فقد كان شخصية معروفة ومحترمة في المدينة، استأذن سليم في مقابلة عمته - كما كان يلقبها - فأرشدته قمر إلى حجرتها باسمه ومرحبة وهو يجتلس النظر إليها باهتمام شديد وود، وما إن اختلى بدُرَّة حتى طلب منها بشكل صريح ومباشر أن تتوسط له عند مجد ليوافق على تزويجه ابنته قمر!

أطرقت دُرَّة في صمت عند سماعها هذا الأمر، ثم سألته في هدوء :

- هل صارحتها برغبتك يا بني؟

فهزَّ سليم رأسه نافيًا، فأردفت قائلة :

- ولكن... قمر تحب شخصًا آخر يا بني...

فاتسعت عيننا سليم قلقًا، فأكملت دُرَّة :

- إنها تحب أقمر بن محب...

فترجع سليم في مقعده في حدة، وتمالك نفسه بمعجزة لكي لا يصرخ في وجه عمته، ثم قال بعد أن عضَّ على شفته السفلى وكأنه يكظم غيظه :

- كيف لهذه الفتاة الذكية أن تحب هذا الأرعن الذي يشكو منه أبوه طوال الوقت؟ إنه لا يليق بها يا عمتي...

- ربما ينصلح حاله يا بني..

فابتسم سليم في سخرية مريرة ثم قال :

- أنا لا أشغل نفسي ولا أضيع وقتي في التفكير في من سينصلح حاله  
ومن سيبقى على ضلاله، سأقدم مباشرة لطلب يدها من أبيها مجد،  
وسأحظى بالموافقة.

فاتسعت عينا دُرَّة ذعرا ثم قالت :

- لا تفعل يا سليم، لا تستغل نفوذك و ثروتك مع شخص تعرف جيداً  
أنه سيوافق على عرضك قبل أن تكمله، وستكون الضحية فتاة  
مسكينة سترغم على زواج لا ترضاه.

- أنا لست سيئاً إلى هذا الحد يا عمتي..

فربت دُرَّة على كنفه وهي تبتسم له معزية :

- أنت سيد شباب المدينة يا بني، وتتمناك أجمل فتاة فيها، وإذا كان  
قلبك قد اختار قمراً، فعلى الأقل فاتحها هي أولاً في الموضوع، واترك  
لها حرية الاختيار.

فترجع سليم في حدة وهو يتساءل مستنكراً :

- هل تريدني أن أضع نفسي في ميزان يقع أقمر بن محب في كفته  
الأخرى يا عمتي؟

فابتسمت له دُرَّة قائلة :

- أليس هذا أفضل مما لو أجبرتها على الزواج بك فتدخل إلى بيتك  
و قلبها مع غيرك؟

فقد سليم حاجبيه مستنكراً بشدة فكرة أن يتزوج من فتاة تحب غيره،  
فقد كان يرى نفسه الأجدر بحبها، ثم عقبته دُرّة :  
- ثم.... هل نسيت يا بني أنهما.... أعني....  
فقطاعها سليم بحدة :

- أرجوك لا تكلمي يا عمتي... لا يمكن أن يصدر ذلك عن من أفنت  
حياتها في سبيل رفعة شأن الروابط الإنسانية فوق الاختلافات  
العقائدية.

فابتسمت دُرّة ابتسامة تمزج الحزن بالألم المتوج بالحكمة :

- بل أنا التي أقول لك ذلك يا سليم، لأنني لم أعمل قط ولم يكن هدفي  
إزالة الفوارق بين العقائد، بل كان ولا يزال هدفي هو قبول اختلافنا  
عن بعضنا البعض في عيش مسالم مشترك يقوم على التعاون ويشمر  
عملاً وإنتاجاً، وهو ما نلحنا جميعاً في تحقيقه هنا.. في أورشلين  
الجديدة.. في مدينة الزيتون التي صنعت تاريخاً جديداً من السلام  
لمدينة لم تعرف قط السلام.. لكن يبدو أن البشر هم البشر.. ويبدو  
أن عشرين عاماً من السلام على وشك الانتهاء.

هزَّ سليم رأسه في حيرة وقد خُيِّل إليه أن عمته قد أصابها الخرف بسبب  
كبر سنّها، فعاد ليقول في عناد :

- لا تهمني فروق العقائد يا عمتي، ليحتفظ كل إنسان على وجه  
الأرض بعقيده، لكنني أحب قمرًا... وسأتزوجها.

وقام من مجلسه بعد عبارته تلك، وغادر الغرفة دون إضافة كلمة واحدة، وسمعته دُرَّة من وراء الباب يطلب من قمر أن تنادي والدها مجدًا لأنه يريد أن يحدثه في موضوع مهم.

ولم يرَ أحدًا من أهل الدار الدمعيتين الحارتين اللتين انحدرتا على وجنتي دُرَّة.

اختلف كل شيء في حياة قمر في الأيام الخمسة التالية بعد أن علمت بالعرض المفرط السخاء الذي قدمه سليم الصفي إلى والدها مجد ليتزوجها، هذا العرض الذي أسال لعاب والدها الانتهازي بطبعه فجنَّد كل قواه لإقناعها بقبول هذا الزواج، ووقفت كوكب حائرة لا تدري ما إذا كان في هذا الزواج سعادة ابنتها أم شقاؤها؟ ورفضت دُرَّة الإفصاح عن أي رأي في هذا الموضوع واعتكفت في حجرها لا تحدث أحدًا ولا تقبل أن يحدثها أحد. وأصبح السهاد رقيقًا لقمر التي لم تكن تنكر بينها وبين نفسها أن العرض أغراها ليس فقط من وجهة النظر المادية ولكن من وجهة النظر المعنوية أيضًا، فقد كانت فكرة مصاهرة عائلة أولاد نجم حلم كل فتاة في مدينة الزيتون، ورغم أنها تعيش في بيت واحد مع سيدة المدينة وجوهرة العائلة السيدة دُرَّة، إلا أنها كانت علاقة اعتياد ومعاشرة وليست صلة رسمية فعلية، وكانت فكرة أن تنجب قمر أبناءً يكون جدهم الكبير هو نجم المقدسي شرف لم تكن تحلم

أبدًا بأن تحظى به، كما عزّز إحساسها بأنوثتها هو كون هذا الشاب الوسيم الثري الذي يكبرها بأكثر من عشر سنوات اختارها هي من بين جميع فتيات المدينة العامرة بالجميلات. واندثشت قمر من نفسها عندما أحست أن موقع إحساسها يجب أقمر قد احتل البند الأخير في تفكيرها، فلم تسارع مثلاً بالرفض دفاعاً عن حبتها، بل فكرت أولاً في الاختلاف الهائل الذي سيطراً على حياتها عندما تصبح أحد أفراد عائلة أولاد نجم، كما أن مسألة الاختلاف العقائدي لم ترد على ذهنها قط، وكان لضغط والدها عليها مفعول السحر، فقد أحسّ بأنها ستحسبها بعقلها وهو ما كان يستهويه ويجدم مصلحته، إذ كانت مصاهرة عائلة أولاد نجم فرصة لا يمكن أن يُفلتها من بين يديه.

وعندما تغيبت قمر عن كلية الفلسفة أياما، انشغل عليها أقمر، فذهب لزيارتها، فاستقبلته بفتور وبابتسامة مصطنعة، وعندما لاحظ تغيرها سأها عما بما فأخبرته بصراحة، وطلبت منه ألا يزورها ثانية حتى لا يثير ذلك حساسية بينها وبين خطيبها المنتظر... فاستمع أقمر إليها مصعوقاً وقد أحرسته المفاجأة، ثم غادر دارها مذهولاً دون أن ينبس ببنت شفة.

وفي صباح اليوم التالي، لم تخرج دُرّة كعادتها في الصباح الباكر، فدخلت عليها كوكب حجرتها لتجدها ممددة في فراشها... وقد فارقت الحياة.

مرّ الآن ثلاثة أشهر...

يجلس كل من محب وسماء في ساحة منزلهما الأنيق والحزن بادي على وجهيهما، فهما في وسط مناقشة حامية مع ابنتهما دائم التمرد أقمر الذي يجلس أمامهما وقد بدا من وجهه أنه يرغب في ويزيد كعادته وهو يسمع أبوه محب يقول :

- لو كنت أعرف بمشاعرك تجاه قمر بنت مجد منذ البداية لمنعك عنها نهائياً، إنما من طبقة مختلفة أكثر سعةً وثراءً، كما أنني لا يمكن أن أصاهر هذا الانتهازي المسمى مجداً حتى لو أهدت الدنيا، إنك تتعلق بحبال خيالية وتريد أن تسكن في قصر من الرمال.

فطأطأت سماء رأسها، ثم قالت :

- لا سلطان لأحد على القلوب يا محب.

فالتفت لها محب بجدة غريبة على طبعه الهادئ الرزين :

- بل إن العقل هو السلطان على كل أمورنا يا سماء، يجب أن نحكم العقل دائماً، وما شجعت ابنك عليه دون معرفتي أمر جلال ولا يُغتفر.

عادت سماء لتطأطئ رأسها وقد انحشرت الكلمات في حلقها وأبت الخروج، فاكثفت بتنهيدة أسي تجاهلها محب والتفت إلى ابنه قائلاً :

– يا أقمر انسَ موضوع حبك لقمر هذا تمامًا لسبب بسيط نعرفه جميعًا، فقد انتهت أيام الحداد على المرحومة الغالية السيدة دُرّة، وقصر عائلة أولاد نجم يستعد لاستقبال قمر بنت مجد عروسًا للسيد سليم الصفي ابن أخت السيد هادي المقدسي.

فرجع أقمر رأسه ووجهه يغلي كالمرجل :

– أولاد نجم يعارضون الزواج لاختلاف العقيدة يا أبي... هذه أخبار مؤكدة.. لن يتم هذا الزواج.

– السيد سليم الصفي يستطيع أن يتزوج بمن يريد دون انتظار إذن من أحد، أعرف أنه سيحاول استرضاء عائلته، فهذه تقاليدهم وهم مترابطون دائمًا، لكن لا سلطان فعلي لأحد عليه، فهو يحتل مركزًا ماليًا متقدمًا في العائلة وبدير الكثير من شئونها الاقتصادية وتجارتها، فالأمر لا يقتصر على الورشة التي أعمل بها، وعليه، فمهما اختلف أفراد العائلة معه فإنهم في النهاية سيتصالحون ويتفاهمون وسيوافقون على ما يريد لإرضائه.

انتفض أقمر من مكانه وأخذ يدور في ساحة المنزل مثل أسد جريح، ثم قال من بين أسنانه :

– لقد خدع قمر بعروضه المالية المغرية، وطبعًا أبوها مجد سيبيع ابنته لمن يدفع أكثر، ولا يهمه أنه يبيع عقيدته أيضًا لعقيدة أخرى!

اتسعت عينا سماء في دعر ونظرت فزرعة إلى محب الذي بادها النظرة  
ذاتها، ثم قالت سماء من بين دموعها :

- لم نسمع مثل هذه الكلمات في أورشلیم الجديدة منذ نشأنا يا  
أقمر... لا تشعل ناراً لن تستطع إطفاءها يا بني...

- النار أشعلها من يريد أن يشتري نساءنا بماله، ومن يعرف... قد  
يدفعها إلى تغيير عقيدتها لتصبح مثله، وهذا ما لا يمكن السماح به !

ولم تشعر سماء بنفسها إلا وهي تتقدم نحوه وتصفعه على وجهه للمرة  
الأولى في حياتها وحياته، ثم أردفت في وجهه صارخة ومحب يحاول أن  
يجول بينها وبينه :

- يا غبي يا أرعن! يا ليتني ما حملتك ولا ولدتك! تريد أن تزرع في  
أرضنا سماً زُعافاً بعد أن جنينا الخيرات وعرفنا معنى السلام الحقيقي!  
هذا السلام الذي لولاه لما أتى ميلادك الأسود إلى الدنيا ليعبد  
إظلامها من جديد!

كان أقمر لا يزال ذاهلاً بعد الصفعة، وكان لا يزال يضع كفه على  
خده غير مصدق أن أمه التي طالما دلتته ودافعت عنه تهبه بهذه الطريقة،  
فاستدار بعنف متجهاً ناحية الباب، ثم عاد ليستدير وهو ينظر إلى أبويه  
بغضب مستعر وعيون تتقد شرراً، ثم فتح الباب وصفقه خلفه بشدة حتى  
كاد ينخلع من مكانه.

– ماذا بك يا محب؟

سأل سليم هذا السؤال بعد أن انتحى بمحب جانباً عندما لاحظ شروده والحزن البادي على وجهه، وارتبك محب، فلم يكن حقاً يدري كيف يصارح رب عمله وولي نعمته بالحقيقة المرّة، لكن سليم فهم وبادره قائلاً :

– أهو أقمر مرة أخرى؟

أطرق محب والدمع يجري في مقلتيه، فأدخله سليم مكتبه وأغلق الباب وجلس قبالة قائلاً :

– اسمع يا محب، إنني أحب الصراحة وأنت تعرفني جيداً، إنني أعرف أن أقمر ابنك يجب قمر خطيبي.

رفع محب عينيه إلى سليم في دهشة، فأكمل هذا الأخير غير عابئ :

– يجب أن يدرك أقمر أن قمرًا اختارت من ستتزوجه وانتهى الأمر، وأنه يجب أن يحترم اختيارها، وفي يوم من الأيام سيعثر على من تناسبه، ولا داعي لأن يستغل خطبتي لفتاة كان يعتقد أنها تحبه للتشجيع ليس فقط على سمعتي ولكن على عقيدتي وعقيدة أسرتي.

تفصّد جبين محب عن حبات ثقيلة من العرق، وشعر بحرارة مفاجأة  
أسالت العرق أنهارًا تجري على سطح جسده كله، وحجّرت المفاجأة  
لسانه فأصبح أثقل من كل المائي في أورشليم الجديدة لدرجة جعلته  
عاجزًا عن التعبير والكلام، ولم يرحمه سليم، فأكمل بالهدوء ذاته :

- وليعرف أقمر ابنك أن يدي لم تمتد إليه بأي سوء حتى الآن مراعاة  
لخاطرك وخاطر والدته فقط، لكنني لو نويت فإنني أستطيع أن أزج به  
في غياهب السجون لسنوات طويلة ستنسيه تمامًا اسم عائلة أولاد  
نجم كلها، فأرجو أن تنصحه بأن يكف لسانه عني وعن خطيبي وعن  
زواجي وعن عائلتي وعن الاختلافات العقائدية، فلا شأن له بأمور لا  
تخصه ولم يكلفه أحد بإصلاح الكون!

كان محب لا يزال يشعر بالخرس وعدم القدرة على الكلام، حتى سمع  
عبارة سليم الأخيرة فأجبر نفسه على الكلام فخرج صوته وكأنه يأتي  
من بئر عميق :

- يا سيد سليم... نحن لم نرَ أقمر منذ أسبوع على الأقل...

فعمد سليم حاجبيه في دهشة وتساؤل، فاندفع محب وقد أصابته موجة  
مفاجئة من الشجاعة :

- يا سيد سليم، لقد تشاجرنا - أمه وأنا - معه منذ أكثر من أسبوع  
بسبب كل ما تفضلت بقوله الآن، وصفعته أمه على وجهه للمرة  
الأولى في حياته، فغادر البيت غاضبًا ولم نرَ وجهه إلى الآن، بل نحن لا

نعرف أصلاً ما إذا كان لا يزال موجوداً في مدينة الزيتون أم أنه غادرها، فلا أحد من أصدقائه ولا من معارفه يعرف له أثراً ولا طريقاً، ولم يره أحد بتاتاً منذ غادرنا.

بدا على سليم الاهتمام، وشعر بمأساة هذا الأب المكلوم في ولده العاق، لكنه ردَّ عليه قائلاً :

– إنه لا يزال قطعاً في مدينة الزيتون ولم يغادرها يا محب، إن ما وصل إلى مسامعي وصلني من أصدقاء لي سمعوه شخصياً يقول هذا الكلام، وأصدقائي يسكنون هنا في أورشليم الجديدة، إنه يعمل بجد لإشعال نار الفتنة في المدينة يا محب، ولن يسمح له أحد بذلك.

– ماذا ستفعل يا سيد سليم؟ لا تؤذِه أرجوك.. إنه شاب طائش.. إنه... أوقفه سليم بإشارة حادة من يده ثم عقب قائلاً وهو يتناول سماعة الهاتف ويطلب رقمًا :

– لِنَجِدْهُ أولاً يا محب، ثم ننظر في أمره بعد ذلك.

لم يستطع سليم الصفتي على مدى يومين كاملين وبكل ما يملك من علاقات ونفوذ معرفة المكان الذي اختفى فيه أقرم بن محب. لقد عرف معلومة واحدة فقط : إنه الآن خارج أورشليم الجديدة، ربما كان موجوداً بها حتى ثلاثة أيام مضت، لكنه حتماً ليس موجوداً بها الآن... فما كان منه إلا أن وضع توصيات شديدة بإخباره فور عودة أقرم إلى

مدينة الزيتون، وفي حنايا نفسه شكر الله كثيراً على مغادرة هذا الشاب الشقي أرجاء المدينة الهادئة المسالمة، وتوسل إليه ألا يعود هذا الشاب أبداً إلى أورشليم الجديدة، كما تعهد بينه وبين نفسه بأن يغدق المزيد من عطفه على محب وسماء الأبوين المكلمين في ابنهما العاق.

بالفعل، اختفى أقمر بن مجد تماماً للأشهر الستة التالية، وانكفاً أبوه محب على عمله لا يجد سلوى سواه بعد أن أعيته الحيل وذاب قلبه من فرط لوعته على فقدان ابنه الوحيد، أما سماء فقد شكت لوعتها وحرقتها من فقدان ولدها الوحيد إلى الله وحده، وانكفأت على الصلاة والعبادة لا تجد سواهما بعد أن عدت ابنها الذي انقطعت أخباره في عداد الأموات، وأصبحت تمارس حياتها وكأنها شبح، قل كلامها وهزل جسدها وصارت الحياة بالنسبة إليها عبئاً ثقيلاً تتمنى التخلص منه.

لم يخلف سليم الصفتي وعده الذي قطعه على نفسه برعاية محب وسماء، فكان دائم الاهتمام بأمرهما على المستويين المادي والمعنوي، وكان يفعل ذلك بمودة إنسانية حقيقية لهما وهو يرجو الله في كل لحظة ألا يعود ابنهما إلى الظهور.

ومع طول غياب أقمر وانقطاع أخباره اطمأن سليم الصفتي لافتراضه بأن أقمرًا قد مات، واستمر في استعدادات زفافه إلى قمر.

وكانت قمر في غمار كل هذا قد بدأت بالفعل تشغل باستعدادات الزواج، ونسيت تقريباً أنها في يوم من الأيام قد أحبت شخصاً اسمه أقمر فقد تضاعل حجمه بشدة في نفسها وفي قلبها أمام سليم بكل إمكانياته وثرائه ونفوذه ومكانة عائلته، اختفى أقمر تماماً في نفسها بعد أن بنت على أنقاض حبها المزعوم له جبلاً من الإعجاب والانبهار بسليم تدرج في شهور ليصبح تعلقاً ثم تدلّها ثم عشقاً وهياماً حتى أنها لم تجد غضاضة في مصارحة خطيبها برغبتها في أن يتم زواجهما بشكل عاجل.

وكانت عائلة أولاد نجم لا تزال على موقفها من الرفض لهذا الزواج لاختلاف العقيدة بينهم وبين عقيدة أسرة قمر، إلا أن سليم صمم على موقفه، بل هدد بفصل استثماراته عن أموال العائلة مما يجعله بالتالي يتخلى عن إدارة أموالها، وكان يعرف أن هذا التهديد سوف يجعلهم يرضخون لأي شيء يطلبه، وقد حدث ما توقع، فبعد العديد من المناقشات والمشاحنات والشد والجذب انتصر سليم، وأقنع الجميع بأنه سوف يخصص جناحاً بكامل خدماته له ولعروسه في قصر العائلة الذي يبعد عن أورشليم الجديدة بحوالي عشرة كيلومترات حين تجهيز قصر منفصل مجاور على الطريق المؤدي لمدينة الزيتون.

وعليه، تمّ الزفاف بالفعل في حفل بهي أضيئت له أورشليم الجديدة بأكملها، وتم توزيع الهدايا والعطايا في جميع أنحاءها، وانتقلت العروس إلى الجناح الفخم الذي تم تجهيزه في قصر أولاد نجم.

في مكان بعيد عن هذه الأحداث، في قلب أطلال المبنى الموجود في مملكة الصف والمهجور منذ أكثر من عشرين عامًا، هذا المبنى الذي كان في يوم من الأيام البعيدة المقر الرئيسي لكلية الفلسفة في المملكة، جلس أقمر، وقد بدا على وجهه وكأنه قد تقدم كثيرًا في العمر، فعلى الرغم من احتفاظه بوجهه حليقًا كما كان، إلا أن عظام وجهه البارزة وبشرته الشاحبة وجسده النحيل - الذي فقد الكثير من الوزن - قد أضافوا إلى عمره سنوات كثيرة تفوق عددها الفعلي، ورغم كونه قد أصبح زائف العينين كمن ودَّع للأبد راحة البال، إلا أن هاتين العينين أصبحتا أيضًا تلمعان كعين ذئب في الظلام الدامس يستعد للانقضاض على فريسته، أصبحت عيناه تحملان تعبيرًا بغيضًا يمزج بين شراسة الحيوان وبرود القتال.

كان جالسًا على أحد المقاعد المتهاكلة الباقية في المنزل القديم وقد أسند ذراعيه على ساقيه وشبك كفيه، واستمع بتركيز إلى محدثه الجالس قبالة على مقعد متهالك آخر :

- كما أفهمتك من قبل يا أقمر، لدينا السلاح والعتاد، ولم يعد باقيا سوى تحديد ساعة الصفر لننطلق.

كان صاحب هذه العبارة التي قيلت في نبرة هادئة مغلقة بالحزم هو أمير فوزان، المساعد الأيمن لزعيم حركة التمرد السرية في مملكة الصف، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره، قصير القامة ضئيل الجسد، يتميز بدقة قسماات وجهه والبياض الناصع لبشرته والذي يبدو أقرب إلى الشحوب، وكان أبرز ما يميز شكله هو ذراعه اليمنى المبتورة، وقد أجابه أقمر :

- ومن الذي يحدددها يا أمير؟

فاكتست نبرة أمير برداء السخرية، ورفع حاجبيه استهزاء وهو يقول :

- الزعيم طبعاً يا أقمر، وهل هذا سؤال؟

فطأطأ أقمر برأسه أرضاً، ثم عاد يرفعها وقد اتقدت عيناه :

- إنني متعجل للغاية يا أمير، لقد انتظرت كثيراً جداً، إنني أنتظر منذ أكثر من ستة أشهر دون أي تحرك يُذكر رغم أن تدريبي قد تمّ وأثنى عليه الزعيم كما أبلغتني.

- ومن الممكن أن تنتظر فترة أخرى يا أقمر، نحن لا نلعب هنا، لا بد أن يكتمل تدريب الآخرين أيضاً، وعندما نصبح معاً قوة ضاربة، وقتها فقط يأذن لنا الزعيم بالتحرك.

- وهل من الممكن أن... يعني... أن أقابل الزعيم لأفنعه بوجهة نظري؟  
فترجع أمير بجسده الضئيل وانطلق في قهقهة ساخرة، ثم أردف قائلاً بين ضحكاته :

- تقابل من أيها الأبله؟ الزعيم لا يقابل أحدًا سواي، ولا أحد يعرفه من المتدربين في الحركة، وأعتقد إنه إذا عرف بمطلبك هذا فسوف يأمر على الفور بتصفيتك.. وهي مهمة سأشرف بتنفيذها!

ثم تابع ضحكه أمام أقمر الذي ازداد وجهه شحوبًا وانكمش في مقعده مثل عصفور بلله المطر، ثم تتمم في رعب :

- كنت أريد... أعني إقناعه بأن... كنت أريد أن أبدأ وحدي ثم...

أردف أمير في لهجة صارمة :

- تبدأ وحدك لتنتقم، أليس كذلك يا أقمر؟

عضَّ أقمر على شفته السفلى ثم غمغم في حسرة :

- لقد... لقد تزوجت قمر بالفعل من سليم الصفي.

- عليك اللعنة أنت وقمر وسليم هذا، هل تريد أن تحتزل حركة تمرد شامل لقلب نظام الحكم في مملكة الصف ولضم مملكة الجوار إليها إلى معركة انتقام خائبة من أجل امرأة.

- ليست المعركة من أجل امرأة، إنها دفاعًا عن عقيدتنا وشرف نساتنا!

- ولماذا نخطط للتمرد إذن أيها الغبي؟ أليس أيضًا من أجل عقيدتنا؟ لا بد أن تسود عقيدتنا بأي ثمن.

- وماذا عن أورشليم الجديدة؟

- وماذا عنها؟ إنها تتبع مملكة الجوار، ويوم أن نضم مملكة الجوار إلى مملكة الصف ستصبح مدينة الزيتون في أيدينا.

– أقصد من الذي سيحكمها؟

قهقهه أمير مجددًا، ثم قال :

– لا تتذاكى يا أقمري، قل ما تريده مباشرة.

فتردد أقمري قليلاً، ثم أردف :

– إنني أعرف أورشليم الجديدة مثل كف يدي، وسوف أساعدكم في الاستيلاء الكامل عليها، ولكن بشرط واحد.

فأجابه أمير في هدوء :

– أن توضع تحت تصرفك.

– نعم، لأصنع بها ما أشاء، أحكمها أو أحرقها، المهم أن تطلقوا يدي فيها.

حكَّ أمير ذقنه بيده مفكرًا، ثم قال :

– هذا أمر يقرره الزعيم بنفسه.

تحمس أقمري وأردف :

– حسنًا، اعرض عليه الأمر، وأبلغني بقراره.

...

– ولماذا لم تخبره هذا الغبي إن أورشليم الجديدة مبنية على أرض مقدسة،  
وإننا لا نسمح بحرقها؟

انبرى الزعيم بهذه العبارة وقد عقد حاجبيه غضبًا، فردَّ أمير :

– لقد آثرت ألا أعلق على ما قال يا سيدي حتى أسمع رأيك فيه.

نقر الزعيم بأصابعه على سطح مكتبه الذي يجلس خلفه، ثم قال وكأنه  
يفكر بصوت عالٍ :

– إن هدفنا هو أن تسود عقيدتنا، عندما يصبح الجميع مثلنا فإنهم  
سيكونون طوع أمرنا، ووقتها تكون كل كنوز أورشليم الجديدة  
وثرواتها في أيدينا.

– من الواضح إن هدف أقرر الأوحده هو الانتقام.

لوح الزعيم بيده باستهانة شديدة، ثم أردف :

– ليذهب إلى الجحيم! لكن...

ثم صمت مفكرًا، وطال صمته، ثم أردف بحزم وقد اتخذ قراره :

– يمكن الاستفادة من هذا الشاب، سندعه يساعدنا في اقتحام أورشليم

الجديدة واعدن إياه بأنه سيكون حاكمها بعد الاستيلاء عليها، ثم...

ومرَّ سبابته أفقيًا على عنقه، وطفرت ابتسامة شرسة وساخرة على

شفتي أمير.

• • •

– وافق؟ أحقًا وافق؟

هتف أقمَر بهذا السؤال وهو يواجه أمير فوزان داخل أطلال المبنى المتهالك لكلية الفلسفة القديمة في مملكة الصف وقد كان المكان المعتاد للقائهما بعيدًا عن العيون، وأجابه أمير وهو يكبح جماح ضحكاته الساخرة ويحاول أن يكون جادًا :

– نعم يا أقمَر، صدقي، لقد رحب الزعيم للغاية باقتراحك طالما إنك ستساعدنا في اقتحام المدينة.

فرك أقمَر كفيه في سعادة غامرة، ثم أردف قائلاً :

– نعم.. نعم.. بالطبع، وسأكون ملكًا على أورشليم الجديدة!

غمغم أمير بسخرية :

– ملكًا؟!!

خبط أقمَر بكفه على جبينه، ثم قال بغبطة :

– أعني حاكمًا أو رئيسًا أو أميرًا، سأكون على رأس الجميع، وسأفعل

وقتها ما أشاء، يا ويلهم مني.. يا ويلهم!

ولم يستطع أمير كبح جماح استهزائه بأقمَر سوى في صورة فهقهة ساخرة اعتقد أقمَر أن أمير يشاركه بها سعادته.

(١٣)

مرّ الآن عام كامل...

- هل سمعتِ آخر الأخبار يا كوكب؟
- سأل مجد زوجته هذا السؤال وهو يدخل البيت، فقابلته بلهفة متسائلة :
- هل حدث مكروه لقمرك؟
- أي مكروه يمكن أن يحدث لحرم سليم الصفتي وأم ابنه الوحيد "نجم" التي تسكن في قصر منيف يحوط بها الخدم والحرس؟ كلا، الموضوع ليست له علاقة بنا على وجه الإطلاق، الموضوع له علاقة بمملكة الصف.
- ماذا حدث فيها؟
- لقد قام بها انقلاب ناجح استولى القائمون به على الحكم.
- بدا على كوكب الاهتمام الشديد، وقبل أن تسأل عن التفاصيل استطرد مجد وهو يجلس :
- الأمر يبدو للوهلة الأولى وكأنه هزل، فمنذ أن انتهت حرب المائة عام منذ ما يقرب من ربع قرن استقرت الأوضاع تمامًا، لكن يبدو أن هؤلاء المتمردين كانوا مجموعة سرية لم يعرف بها الأمير الحاكم لمملكة

الصف إلا بعد أن وجد نفسه أسيراً بين أيديهم ليُحرق حياً في ميدانها  
الرئيسي.

فاتسعت عينا كوكب في ذعر واشتمزاز شديدين ثم رددت :

– يُحرق حياً؟! يا إلهي! ما هذه الوحشية يا مجد؟!!

هزَّ مجد رأسه في أسف وهو يردف :

– نعم، فقد أتموه بالضلال وحكموا بإعدامه.

فلوت كوكب شفيتها في احتقار وهي تقول :

– ولم يجدوا سوى هذه الطريقة الوحشية لإعدامه.

– إنه ليس الوحيد الذي أتموه بهذه التهمة وحكموا عليه بهذا الحكم،

إنهم يبدأون حكمهم بمجازر جماعية لغرس الخوف في النفوس،

ولإجبار العوام على إتباع عقيدتهم.

– وما هي عقيدتهم؟

فتردد مجد للحظات، وعندما استحثته كوكب أجاب :

– إنها نفس عقيدتنا يا كوكب.

شبهت كوكب في فزع مروع، وخبطت بكفيها على وجهها كمن تلقى

لتوه خبر وفاة عزيز لديه، ثم انتفضت واقفة وهي تغمغم بصوت أخذ

يعلو تدريجياً :

– ماذا يحدث يا إلهي؟ ماذا يحدث؟ يا رب احفظنا واحفظ مدينتنا، أين أنت يا أمي دُرّة؟ ليرحمك الله يا أمي، كنا سنسترشد بحكمتك في هذا الموقف العصيب.

فاندهش مجد مما سمعه من زوجته، وسألها مستنكرًا :

– أي موقف عصيب يا كوكب؟ هذا مجرد خبر أنقله إليك، وما علاقتنا نحن بمملكة الصف؟ نحن نسكن في مدينة الزيتون التابعة لمملكة الجوار.

– ومن الذي سكن في مدينة الزيتون منذ أول لحظة لإنشائها يا مجد؟ فصمت مجد وكأنه يفكر في مغزى سؤالها، لكنها بادرت بالإجابة وهي تتشهد في أسى وحزن عميقين :

– لقد أنشئت مدينة الزيتون خصيصًا لاستقطاب الأطراف المتحاربة في مملكة الصف أولاً ثم في مملكة الجوار ثانيًا، إن البذرة الأولى لسكان أورشليم الجديدة تكونت من أهل مملكة الصف على اختلاف عقائدهم. إن هذا الانقلاب سوف يتسبب في كارثة لمدينتنا خاصة وأنه انقلاب دموي كما رويت.

فغفر مجد فاه وكأنه تبين فرط غبائه فجأة، ثم ما لبث أن تزايدت سرعة ضربات قلبه عندما تبين أن هناك أضرارًا هائلة ستصيبه وتصيب تجارته إذا ما قامت حرب عقائد في أورشليم الجديدة، بل إن مجرد قيام بعض

المناوشات سيعكر صفو سلام المدينة وسيضر إن عاجلاً أو آجلاً بعمله. ثم فكّر في ابنته، فانتابه الهلع على مصيرها، فلو هاجم قادة هذا الانقلاب مملكة الجوار وعرفوا بأمرها فسوف يقتلونها ويقتلون زوجها وابنها وربما يقتلون عائلة زوجها جميعاً، وبدأ فعلياً يرتجف ويتصبّب عرقاً بعد أن تخيل حدوث ذلك، وعندما شاهدت كوكب حالته فهمت أنه يفكر في قمر، وشاركته الإحساس ذاته والرجفة ذاتها.

تسارعت الأحداث بعد ذلك خلال شهرين تسارعًا جنوبيًا، وكان الفتنة ألسنة من النار تنطلق في سائل سريع الاشتعال. فقد بدأت المناوشات خافتة وغير محسوسة في أورشليم الجديدة بين من يتبعون عقيدة قادة الانقلاب ومن يتبعون العقائد الأخرى.

كان الأمر في البداية غير ملحوظ، حتى حدث اعتداء سافر محدود في بدايته على أحد محال بيع زيت الزيتون يملكه تاجر يتبع عقيدة قادة الانقلاب، تبعه رد بالمثل على أحد محال بيع العطور، ثم اعتداء على دور العبادة الواحد تلو الآخر، كان الأمر متقطعًا في بدايته ومحدودًا وتسهل السيطرة عليه بين الأهالي أنفسهم الذين أخذوا يذكرون إخوانهم بأواصر المحبة التي جمعت الجميع عبر حوالي ربع قرن من الزمان. كانت التهذنة تتم فوراً، ثم أصبحت تتم على فترات، ثم أصبحت خارج سيطرة المسالمين من الأهالي، ثم تطورت إلى اشتباكات مرئية وظاهرة في شوارع المدينة وأسواقها، ثم أصبحت خارج سيطرة الأمن في المدينة.

وتعرضت ورشة سليم الصفتي إلى الاعتداء فاضطر إلى إغلاقها إلى أجل غير مسمى، وتفادى دخول المدينة من الأساس، وظل ماكنًا في قصره مع زوجته قمر وابنه نجم تحوطهما دوريات متتالية من الحراسة التي كان سليم يدفع كل نفقاتها حرصًا على سلامته وسلامة أسرته الصغيرة.

توازت أنباء الأوضاع المتدهورة في أورشليم الجديدة مع تحركات قادة الانقلاب الذين كانت قوتهم العسكرية قد تضاعفت قبل قيامهم بالانقلاب عبر عام كامل عمل فيه زعيم الحركة بكل جد لتوسعة قاعدة حركته السرية وجعلها أشبه بالتكوينات العنقودية التي لا يعرف كل أفرادها بعضهم البعض لكنهم جميعًا يتفقون على هدف واحد، وقد نجحت خطته في ضم الكثيرين من أتباع عقيدته من مملكة الصف ومن الممالك المحيطة إلى الحركة والذين تحولوا بعد تدريبهم العسكري وغسل أدمغتهم إلى قنابل بشرية تنتظر نزع فتيلها.

تواترت الأنباء عن اقتحام قوات الانقلاب لحدود مملكة الجوار واحتلالها وإعلان كونها تابعة لمملكة الصف. وبدأ الزحف المنظم تجاه أورشليم الجديدة.

كان يوم اقتحام قصر عائلة أولاد نجم وقصر سليم الصفتي المتجاورين والواقعين على الطريق المؤدي إلى أورشليم الجديدة يومًا مشهودًا في تاريخ العائلة، فقد أبى هادي المقدسي وزوجته واثنين من أولاده المقيمين معه بصحبة زوجتيهما وأطفالهم مغادرة المقر التاريخي للعائلة، كما أبت شقيقة هادي التي هي والدة سليم الصفتي الأمر نفسه، والوحيد الذي لم تسنح له الفرصة لمشاركتهم هذا الرفض هو الشقيق الأكبر هادي الذي كان يعيش في القصر ذاته ولم يتزوج، وذلك لأنه كان قد توفي قبل اقتحام القصر بشهر واحد. وقد تم اقتحام القصر تحت قيادة أقرم بن

محب وتم الاستيلاء عليه في وقت قصير للغاية، ولم يتردد أقمر في إصدار أمر بإعدام جميع المقيمين فيه باستثناء قمر التي أخذ يبحث عنها دون جدوى حتى لفت أحد تابعيه نظره بأن هناك قصرًا آخر مجاور لهذا القصر يعيش فيه سليم الصفتي وزوجته وابنه. وشبَّ الحريق في صدر أقمر وهو يسمع اسم سليم الصفتي، وشعر بالنار تكاد تأكله باكتشاف أن قمر أنجبت من هذا الرجل أيضًا. وبعد أن تمَّ إعدام جميع المقيمين بالقصر رميًا برصاصة واحدة في الرأس لكل منهم، استباح الجنود القصر العريق وأوسعوه سلبًا وهبًا ودمروا حديقته الغناء، ثم غادروه وقد أصبح أثرًا بعد عين وسالت به الدماء أثمارًا.

تكرر نفس ما حدث في قصر عائلة أولاد نجم في قصر سليم الصفتي، حيث أبيت القوة الحارسة للقصر تمامًا، وقتل أقمر سليم الصفتي بيده برصاصة واحدة في رأسه، ثم اصطحب معه قمر التي أصيبت بذهول وصدمة وهي ترى زوجها يُقتل أمام عينيها دون ذنب ولا جريرة، فما كان منها إلا أن احتضنت طفلها الرضيع نجم الذي أصبح يتيماً في هلع شديد خاصة عندما رأت أن أقمر ينظر إليه وإليها باحتقار وكرهية، واصطحبهما أقمر معه عنوة رغبة منه في أن تشهد قمر دخوله منتصرًا إلى أورشليم الجديدة.

كانت أورشليم الجديدة متأهبة لاستقبال متمردي مملكة الصف، فمن يتبعون عقيدتهم كانوا على الأبواب مرحبين بأذرع مفتوحة بمن ظنوا

أهم ينصرون عقيدتهم، في حين عاش بقية السكان في رعب مقيم، فقد  
سبقت المتمردين سمعتهم الدموية، وكان كل فرد من أتباع العقائد  
الأخرى يتوقع مقتله.

مرّ الآن أربعون عاماً...

- لماذا يا بني؟ لماذا تريد أن تنكأ جراحاً قديمة؟ لقد مرّت عشرات  
السنين الآن...

- لا بد أن أعود يا أمي.

طأطأت الأم برأسها بيأس أمام الإجابة الأخيرة التي أطلّ من حروفها  
كل حزم الدنيا وتصميمها، لكنها عادت تقول بصوت خفيض يمتزج  
فيه الحزن بالرجاء :  
- لا تتركني يا نجم.

اقترب نجم منها واحتوى رأسها الأشيب في صدره العريض مقبلاً إياه في  
حنان دافق، ثم قادها بتوقير تام وأجلسها وجلس بجانبها يربت على  
ظهرها ويمسح عن وجهها دموعاً بدأت تسيل، ثم استطرد قائلاً بصوت  
يقطر رقة وحناناً :

- يا أمي إنما قضية عمري، عمرنا معاً، فلولاك لما كنتُ هنا الآن أبلغ  
من العمر أربعين عاماً، وعندني طفلة بديعة تبلغ إحدى عشر عاماً  
اسمها قمر.

– لو كان أبوك أو زوجتك رحمهما الله على قيد الحياة لكانا ساعداني  
الآن في إثناك عما تريد، أنت تستغل ضعفي أمامك لتنفذ ما تريد.

عاد نجم يحتضنها مجددًا، ثم قال :

– تذكري يا أمي، تذكري الطفل نجم، الذي قتل المتمردون والده دون  
ذنب، واقتادوا والدته أسيرة، وعندما شرعت في الهروب منهم  
أطلقوا على ظهرها الرصاص وأردوها قتيلة...

فأكملت الأم وقد سرحت ببصرها في الفراغ وهي تخترق أربعين عاما  
من الزمان :

– وظنوا أن وليدها هلك معها، لكن الله شاء لك البقاء، وانشغل  
المتمردون بالاستيلاء على أورشليم، ثم بقتال بعضهم البعض وبقتال  
الأهالي، فلم ينتبه أحد إلى رضيع يبكي في حضن والدته القتيلة خارج  
أسوار المدينة...

فابتسم نجم الذي رغم سماعه لهذه القصة عشرات المرات إلا أنه أكملها  
شغوفًا بما مع أمه :

– وصار الطفل بهذا الشكل يتيم الأبوين، مشردًا، بلا عائلة، ولا أحد  
كان من الممكن أبدًا أن يعرف من هو ولا ابن من، فكيف لهذا الوليد  
الأبكم أن يعلن عن هويته وأصله؟ لولا هذه البنت الشابة، التي  
كانت تعمل خادمة مع أمها في قصر عائلة أولاد نجم، والتي كانت

ضمن الفريق الذي استطاع الهروب قبل وصول المتمردين إلى القصر  
وإبادتهم لكل من فيه...

فابتسمت الأم الحنون وسط دموع على وجهها لم تجف بعد، ثم قالت :  
- وكان طريق الهروب يمر بالمصادفة بأسوار أورشليم، وكان الهروب  
ليلاً في طريق لا يضيئه سوى ضوء البدر، فسمعت البنت بكاء طفل،  
فأوقفت أمها وأرهفت السمع، ثم اقتربت أكثر من موضع الصوت،  
و....

أغمضت الأم عينيها ألماً وهي تتذكر كيف انتزعت نجماً وهو طفل  
وليد من بين ذراعي والدته القتيلة التي كانت تتشبث به بشدة، حتى أنها  
اضطرت إلى الاستغناء عن غطائه الذي كانت تلوثه الدماء والذي  
كانت والدته تطبق عليه بأصابع يديها بحيث أصبح يستحيل انتزاعه  
منها. وتذكرت إحساسها وقت أن رفعت ابن سادتها وأصحاب  
الأفضال عليها وعلى أمها وقد أصبح يتيمًا وشريدًا بلا عائلة، ولا أحد  
يعرفه سواها وسوى أمها، فاحتضنته وهي العاقر التي طلقها زوجها وهي  
في مقتبل العشرينيات من عمرها لعدم قدرتها على الإنجاب. ولم يكن  
الأمر في حاجة إلى اتخاذ قرار، فقد اصطحبت المهربان الطفل معهما،  
وأخذتا طريق الهروب نحو البحر، وبعد طريق طويل ووعر وشاق وصلتا  
إلى البحر وارتحلتا مع أول سفينة إلى هذه الجزيرة النائية، حيث ألفتا  
أهلها واستقرتا فيها، وعملتا أيضاً بالخدمة وتوليتا معاً تربية نجم، وعندما

بلغ نجم الثالثة من عمره تزوجت أمه بمحداد من أهل الجزيرة أصبح نجم بعد ذلك يعرفه كأبيه، وكان الحداد عاقراً هو الآخر هجرته زوجة سابقة للسبب نفسه.

وعاشت الأسرة في سعادة وهدوء، وبعد عشر سنوات ماتت الجدة، ومنذ أن بدأ نجم يكبر ويفهم، بدأت أمه تروي له قصته وتعرفه بأصله وبجذوره وبفضائل عائلته وبعقيدته التي كانت تختلف عن عقيدتها هي وأمها وزوجها، وكانت قد روت لزوجها قصة نجم فانفطر قلبه تعاطفاً معه.

وعبر سنوات حياته الأولى، كان نجم يقرأ بنهم عن أورشليم القديمة والجديدة، وكان يقرأ كذلك في عقيدته ويتبحر فيها ويمارس طقوسها، ثم التحق بأحد معاهد الترجمة في جزيرته وتخرج بتفوق، فعمل مترجماً، وبرع في هذه المهنة، وأكسبته السنوات الخبرة والمال. وكان لا يزال يبحث في تاريخ عائلته وفي تاريخ أورشليم، وعثر لحسن حظه على نسخة مطبوعة من مذكرات جده الكبير نجم المقدسي، وشغف بها، وكان كلما اكتشف شيئاً جديداً عن عائلته ذهب إلى أمه ليقتبل يديها ويشكرها على أنها اختارت منذ اللحظة الأولى مصارحته بحقيقة أصله، وكان من الممكن أن تجرفها أنانية الامتلاك وتستحوذ عليه بالكامل كطفل ينتسب إليها، كان دائماً ما يكرر لنفسه هذه الحقيقة : فمن أين له أن يعرف كل ما عرف؟ ومن أين له كل هذا الفخر بجذور عائلته

الكريمة وأمجادها وسمعتها ؟ ومن أين له اسمه ونسبه لوالده الحقيقي واحتفاظه بعقيدة آبائه وأجداده؟

لكن تعذر دومًا أمر واحد أمامه : أن يعود إلى مسقط رأسه، على الأقل ليرى أطلال مدينة الزيتون أو أورشليم الجديدة التي لم يرها أبدًا. فقد كانت أخبار بجور الدماء المراقبة في كل أراضي مملكة الجوار ومملكة الصف وما حولهما تتواتر فتقشعر من سردها الأبدان، حتى إنه لم يعد هناك منتصر ولا مهزوم، أصبح الكل أمام الموت والفناء والخراب... مهزوم.

ومنذ عامين فقط، بدأت الأمور في استعادة الهدوء بعد خسائر تستعصي عن الحصر، وأعداد غير معلومة من القتلى عبر كل هذه السنوات، المهم، لقد انتهت حرب المتمردين الذي اقتتلوا حتى أفنوا بعضهم بعضًا، وعادت أورشليم مدينة مهجورة بعد أن قُتل كل سكانها بخلاف القلة التي استطاعت منهم الفرار من المذابح.

ابتسم نجم بن سليم الصفتي، ثم عاود القول :

– يا أمي، لقد حصلت على عقد جيد جدًا للعمل في مجال الترجمة في مملكة الجوار، وسنذهب معًا، أنت وأنا وقمر ابنتي.

هزّت الأم رأسها في اعتراض قاتلة :

– كلا، لا أريد أن أعود إلى هناك، لن أترك بيتي هذا.

- وكيف نتركك وحدك يا أمي؟

نظرت إليه الأم بذعر وهتفت :

- هذا معناه إنك قررت الرحيل بشكل نهائي.

طأطأ نجم برأسه صامتاً في حيرة، فعادت تسأله :

- يا بني، أكمل دراستك هنا يا بني، وأكمل عملك هنا، لماذا الغربية؟

- إنني هنا في غربة يا أمي، إنني سأعود إلى وطني.

- يا بني، لقد نسيك وطنك.

- كلا، الوطن لا ينسى أبناءه أبداً، لقد أجبرتني ظروف القتال على

الغربة كل هذه السنوات، ولكن ها هي الأمور قد هدأت، ويجب أن

أعود إلى مسقط رأسي، يجب أن أعود يا أمي، يجب أن تجد أورشليم

من يمد يده إليها، لقد بدأت بالفعل - استغلالاً لعلاقتي على المستوى

الدولي - في تأسيس شبكة تنموية دولية تضم كل العقائد للدعوة إلى

إعادة إعمار أورشليم، سأتفرغ - بجانب عملي - لهذا الموضوع كما

فعلت جدتي ذرةً رحمها الله. يجب أن تعود هذه المدينة إلى الحياة حتى

تحيا معها كل معاني التعايش والتسامح يا أمي.

عادت الأم لتتهز رأسها بيأس قاهر، ثم رفعت رأسها بحدة وتساءلت :

- أنا أعرفك جيداً يا نجم، يوجد سبب أساسي بخلاف توقف القتال

وعقد العمل وإعادة إعمار أورشليم، إنك تستطيع أن تقوم بدعواك

هذه من هنا، لكن يوجد سبب خفي يثير حماسك بهذا الشكل، وأنا أريد أن أعرفه.

فابتسم نجم بهدوء شديد، ثم احتوى كف أمه بين راحتيه وهو يقول :  
- نعم يا أمي، من الممكن أن تقولي أن هناك أمرًا بسيطًا في ظاهره قد حدث لكنه كان أقوى محفز لي لاتخاذ قرار العودة.

فسألت الأم بلهفة :

- ما هو يا بني؟ عروس مثلاً...

ضحك نجم ملء فيه، ثم استطرد :

- كلا يا أمي، لن أتزوج ثانيةً بعد زوجتي الحبيبة رحمة الله. في الواقع، إن قمرًا ابنتي هي السبب.

- كيف؟

- منذ شهر سألتني : لم يا أبي أسميتني قمرًا؟

ولأول مرة منذ بداية الحديث اتسعت ابتسامة الأم الحنون، فاحتوت ابنا بين ذراعيها، ثم رددت عليه بصوت مسموع عبارة كانت تحفظها قديمًا كل عائلة أولاد نجم، وكان يعرفها عن ظهر قلب كل من عرفهم أو كان من المتصلين بهم :

- انطلق إلى الحرية يا نجم، ولا تسمح لأحد أن يسلبها منك أبدًا.

obeyikan.com

أنا أورشليم...

فقدتُ كل معالي ... فلم يعد هناك من سبيل للتعريف بي.

هل كان الخطأ خطأي أم كان البشر هم الخاطئين؟

لقد حفظتُ مقدساتهم قديمًا... فاقتتلوا عليها وحوها.

تخلصتُ منهم وأردتُ أن أصنع لنفسي تاريخًا من السلام المفقود...

فاختاروا التمرد.

للمتُ جوانبي وهجرتُ الأرض وسكنتُ النفوس لأقضي على

الخلاف والاختلاف ليتحقق السلام... فاقتتلوا بشراسة أكبر من

تاريخهم الأول.

عدتُ لأسكن الأرض في ثوب جديد... فلم يتركوني أهنأ إلا برُبْع

قرنٍ فقط من السلام بعد عُمُرٍ سحيقٍ من الدمار والفناء وإراقة

الدماء.

وها قد تحققت النبوءة المُغرِقة في القِدَم... وها هو ذا بيتي متروكٌ

للخراب.

فما السبيل إلى البناء؟ وما السبيل إلى التسامح؟ وما السبيل إلى

الحب؟ وما السبيل إلى الحرية؟ وما السبيل إلى السلام؟

obeykahn.com

## على هامش الرواية

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أنكرُ صاحبي      إذا لم يكن ديني إلى دينه داني  
فأصبح قلبي قابلاً كل صورةٍ      فديراً لرهبانٍ ومرعى لغزلانٍ  
وبيتُ لأوثانٍ وكعبةً طائفٍ      وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآني  
أدين بدين الحب أنى توجهتُ      ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني

عجيب الدين بن عربي

obeyikan.com



## المؤلفة في سطور

- د. شيماء الشريف
- حاصلة على درجة الدكتوراه في الأدب الفرنسي مع مرتبة الشرف الأولى - قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية، عام ٢٠٠٩م.
- حاصلة على درجة الماجستير في الآداب بتقدير ممتاز من قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب. جامعة الإسكندرية، عام ٢٠٠٣م.
- مسئول البرامج والأنشطة الثقافية في مركز الأنشطة الفرنكوفونية بمكتبة الإسكندرية.
- رئيس وحدة منتدى الحوار بمكتبة الإسكندرية، في الفترة بين عامي ٢٠٠٣ - ٢٠١١م.
- لها العديد من المقالات المنشورة على الإنترنت وفي العديد من الصحف المصرية.
- سقّر أورشليم روايتها الأولى. صدرت طبعتها الأولى عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٣م، وطبعتها الثانية ٢٠١٦م.
- البريد الإلكتروني: [Shaymaa.Elsherif@bibalex.org](mailto:Shaymaa.Elsherif@bibalex.org)  
[clapotis7@yahoo.com](mailto:clapotis7@yahoo.com)



## شمس للنشر والإعلام

### رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً و جماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.

- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.

- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤية تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.

- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

**شمس للنشر والإعلام**

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065



للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

[www.shams-group.net](http://www.shams-group.net)